مطبوعات مكتبة مصر

البصرة .. حبيبتي

تاليف

د. نبيل راغب

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

إهـــداء

إلى روح الشهيد العراقى المصرى العربى الذى هو أفضل منـا جميعاً :

أهدى هذه الرواية التى كتبها بدمه الطاهر .

نبيـل

(١)

علا زئير محركات الطائرة العراقية الضخمة وقد انهمك طاقمها من المضيفين والمضيفات فى اغلاق أبوابها . بدت من نوافذها الزجاجية الضيقة مبانى مطار القاهرة الدولى تحت وطأة لهيب الشمس وسياطها وكأنها تكاد تتصبب عرقا . تناثرت بعض طائرات عملاقة ومتوسطة عند أطراف الساحة وقد تجلت شارات بلادهـا الملونـة على ذيـولها الشامخة .

كانت الطائرة لا تزال رابضة على الأرض والركاب ينصتون إلى تعليمات الطاقم بالامتناع عن التدخين وربط الأحزمة لتنفيذها بطريقة آلية . عندئذ وقفت المضيفات العراقيات بعيونهن السوداء الواسعـة وشعرهن الفاحم اللامع ليصفن بالحركات كيفية ارتداء حزام النجاة فى حالة تعرض الطائرة لأى خطر يهدد سلامتها .

شرعت الطائرة فى التحرك على الساحة لتستدير منطلقة بعجلاتها المطاطية على أحد الممرات التى أحدثت بفواصلها الأسمنتية إيقاعات رتيبة تحت وطأة العجلات التى هدأت من سرعتها لتتوقف عند منحنى الممر للحظات يعلو بعدها زئيرها لتنهبه بعجلاتها منطلقة إلى سماء القاهرة التى مالت بمبانيها ومساحاتها الصفراء والخضراء يمنة ويسرة خلف نوافـذ الطائرة . تضاءلت المبانى والطرقات واستحال النيل خطا فضيا متعرجا

بين مكعبات رمادية ومسطحات خضراء ، والطائرة آخذة فى الصعود وهى تشق السحب الشفيفة لتستوى بين غلالاتها وتتجاوزها حتى أوشك الكون على التلاشى أسفلها .

كان خالد يتابع الإقلاع والصعود من زجاج نافذته بنظرات شاردة . فالهدير الصاخب داخله أجبر هدير الطائرة فى أذنيه على التراجع ثم التلاشى أمام الأسئلة المحمومة التى تنهش قلبه بسهام متأججة دون إجابات تتساقط عليه كغيث من السماء يرطب شقوقه المحماة بسعير الخواطر والذكريات والآلام والآمال .هل اتخذ قراره فرارا من جحيم الغيرة والشك الذى أحرقته زوجته سهام به ؟! أم أنه قرر التطوع كطبيب فى القوات المسلحة العراقية إيمانا منه بأن العراق تخوض معركة الأمة العربية كلها ضد العدوان الفارسى ؟! أم أن نفسه لا تزال تهفو إلى ليلى حلم حياته الجامعية والتى انقطعت أخبارها عنه ما يقرب من عشرين عاما ؟! أم أنها كل هذه العوامل متجمعة ومتشابكة بحيث يستحيل الفصل بينها ؟! صحيح أن العراق كانت دائما وطنه الثانى . فأخته صفاء متزوجة من سعدون الصحفى العراقى الذى يتفجر بعشق مصر ، وتعيش معه فى بغداد . كانت تراسل أخاها باستمرار وفى السنوات الأخيرة لم يكن لها حديث سوى يوميات الحرب مع إيران والتى دخلت عامها الثامن دون أن تبدو فى الأفق بوادر لنهاية حاسمة ! عاش خالد تفاصيل الحرب فى خطابات أخته ، فهل كانت هى أيضا أحد الأسباب التى دفعته لاتخاذ قراره ؟!

كان أبوه أيضا من أكبر المناضلين فى ساحة القومية العربية .كان

أستاذا فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة التى اتخذ منها منبرا لإشعال روح القومية فى وجدان طلبته وعقلهم ، بالإضافة إلى مقالاته فى الصحف والمجلات المصرية والعربية ، وأحاديثه عبر الأثير ، وكتبه التى سعت لإرساء القومية العربية على أسس علمية فى مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة . ولذلك تشرب خالد منذ نعومة أظافره مناخا مشبعا بالروح القومية ودفقات الفكر والثقافة . فلم يكن أبوه مجرد رافع لشعارات براقة ، بل كان يعيش القومية والثقافة فى كل لحظة من لحظات حياته . عمل أستاذاً زائراً لجامعة بغداد فى الخمسينيات حتى قيام ثورة ١٤ تموز التى لم تقل بهجته بها عن سعادته بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . ولم يعد إلى القاهرة إلا بعد انتكاستها على يد الديكتاتور عبد الكريم قاسم ، بل وعاد معه فى مطلع الستينيات عدد من أحرار العراق الذين قرروا تجميع صفوفهم فى القاهرة تحينا لفرصة العودة لتخليص بلدهم من الغمة التى جثمت على كاهله . من هؤلاء الأحرار سعدون الصحفى الثائر الذى كثيرا ما تردد على بيت أبيه فى الجيزة كأنه أحد أفراد الأسرة ، بل وليصبح واحدا منها بالفعل عندما أبدى إعجابه بأخته صفاء ورغبته فى التقدم لطلب يدها . وعندما فاتحها أبوه وجد منها ترحيبا كاسحا كأنها كانت تتمنى ذلك منذ أول مرة التقت فيها به .

ولم يكن شيء أحب إلى قلب خالد من قضاء عطلاته فى ضيافة أخته ببغداد والتريض على ضفاف دجلة التى تحاكى ضفاف نيل القاهرة فى كثير من منحنياتها ونسماتها التى تهب مخضلة بعبق الياسمين ومرددة حفيف أشجار السرو والبلوط . فهل من المثير للدهشة الآن أن يعود إلى

بغداد بعد غيبة طويلة كادت تصل إلى عشر سنوات ليقف معها فى لحظاتها المصيرية الحاسمة ؟! صحيح أنه اعتاد بعد زواجه من سهام وانجابه دعاء أن يصطحبهما معه ، لكن هل يمكن أن يفعل هذا الآن والبلد كله فوق فوهة بركان ؟!

آه من يفهم كل هذه الأسئلة المتأججة كسهام مارقة دون قطرة ماء تشفى غليله ! إنه فعل ما فعل بل وما سوف يفعله بدافع من قوة قدرية لا يدرى كنهها وإن كان يشعر بها ، وليس عليه سوى الاستسلام لها ! قوة لا تتدفق فحسب من الظروف المحيطة به بل من ينابيع وكهوف غائرة داخله ، لا يكاد يتبين ملامحها وسط دياجير ظلمة حالكة مثل الظلمة التى أصبحت تحيط ببغداد خاصة فى أثناء الغارات الجوية عليها والتى لم يخل خطاب لصفاء منها !

لا .. لايصح أن يوحى لنفسه بأن زوجته سهام هى الدافع وراء انطلاقه إلى بغداد الآن ! قد تكون نار غيرتها وقلقها هى التى صهرت كل الشوائب والتراكمات والرواسب التى تكلست على وجدانه وغطت عقله بالصدأ ، فبدا جوهره نقيا متوهجا وسط أفكاره المتصارعة وخواطره المتلاطمة ! لكن ما ذنبها وذنب دعاء وأيمن إذا فقد حياته ؟! ومع ذلك .. منذ متى كان الإنسان يعرف مصيره على وجه التحديد ؟! وهل وجوده فى القاهرة ضمان لاستمرار حياته من أجل أسرته ؟! إنه يعرف زميلا وصديقا له فى القوات المسلحة كان نجما من نجوم حرب أكتوبر ، وخاصة معركة الجيش الثانى وحصاره عند عيون موسى ببسالة جعلته يحصل على وسام نجمة سيناء . كل هذا ولم يصب بخدش واحد ! وفى إحدى إجازاته

فى القاهرة غادر منزله فى طريقه إلى أحد المسارح للترفيه عن نفسه ، فمات فى حادث تصادم على طريق المعادى !!

انحنت المضيفة الجميلة على مقعده لتقدم له بعض المرطبات وابتسامة عريضة تفترش وجهها الوضاء ! سرت فى عروقه دماء متجددة نضحت بابتسامة على شفتيه وحمرة على وجنتيه وهو يتعجب لهذه الجميلة التى تبتسم وتباشر عملها بمنتهى الهدوء والحيوية والبشر برغم معركة المصير التى يخوضها بلدها من أجل الأمة العربية جمعاء !

تجرع نصف الكوب المثلج وقد سرح ببصره عبر النافذة . كانت الشمس قد مالت عند خط الأفق وانكسرت حدة وهجها فوق الرمال الشاسعة التى تبدو داكنة فى معظم مساحاتها المحيطة بلون البحر الداكن أيضاً . وعلى مرمى البصر بدا خط طويل من الدخان الأبيض فى أعقاب نفاثة تألقت نقطة فضية ، فى مقدمة الحبل الدخانى الذى ظل ثابتا وإن قاومت نهاياته بوادر التلاشى . الى أين هذه الطائرة النفاثة الصغيرة التى تمخر عباب الأفق الرحب ؟!

لم يجهد عقله بحثا عن إجابة لهذا السؤال إذ سرعان ما ذكره هذا الأفق الرحب بليلى البصرى ! تلك الفتاة العراقية الساحرة بعقلها وشكلها والتى لم يمر يوم واحد فى حياته إلا ومر طيفها بمخيلته ليضىء كهوفها المظلمة برغم مرور حوالى عشرين عاما على الفراق بينهما ! كم هفت نفسه للسؤال عنها فى زياراته بعد ذلك لبغداد ؟! لكنه كان أدرى بجنون سهام وغيرتها الحارقة وإصرارها على الالتصاق به فى كل روحاته وغدواته فى العراق ، بل ورصدها لكل كلماته بل وخواطره وهواجسه

إن استطاعت ومع ذلك تركت ليلى فى نفسه شيئا ظل كامنا وراسخا عبر الأيام التى لم تستطع سوى أن تضاعف من كمونه ورسوخه !

أرخى خالد جسده المشدود فى مقعده فتذكر أنه لا يزال مقيدا بحزام الأمان الذى كان المفروض أن يفكه بمجرد استواء الطائرة فى خطها وارتفاعها المطلوبين ! أسرع بفكه وتجرع ما تبقى فى الكوب المثلج وشرع فى اجترار الذكريات التى لم يسأم منها طيلة عشرين عاما . كانت ليلى نقيض سهام التى كان مرتبطا بها قبل لقائه بليلى . تخرجت سهام فى نفس دفعته . كانت تمتاز بالطيبة والرقة والبراءة بل والطفولة . عملت فى عيادة أبيها الطبيب الكبير بعد تخرجها على وعد من خالد بالزواج منها . لكن الشيء الذى أقلق خالدًا وأوجد بينهما حاجزا شائكا كان غيرتها العارمة عليه . لم تكن تحتمل أن يصادق أو حتى يتحدث مع أية زميلة له . وكان يدرك أن سبب هذه الغيرة يكمن أساسا فى الفراغ الذى تعيشه . فهى لم تكن متفوقة تماما فى دراستها ، بل وكانت متأثرة بالآراء التى تنادى بعودة المرأة إلى البيت طالما أنها تملك الدخل الذى يغنيها عن العمل . بل كثيرا ما كانت تنحو باللائمة على قاسم أمين الذى دفع بالمرأة من هدوء البيت وسكينته إلى خضم الحياة وصخبها . كانت تقول ذلك على سبيل الدعابة ومع ذلك لم تغب عن فطنة خالد أنها تعبر عن مكنونات صدرها الجادة ! لم تكن لها أية اهتمامات ثقافية أو فكرية ، حتى الجريدة اليومية لم تكن تعبأ بقراءتها ، إذ كان كل همها أن تستقر وتعيش حياة زوجية هادئة تقليدية . ومع ذلك كان خالد يحب طيبتها وطفولتها البريئة .

لكنه عندما قابل ليلى وهو يعمل معيدا بالكلية وجد نمطا مختلفا تماما عن سهام . فهى متفتحة للغاية ، مثقفة من الطراز الأول ، مؤمنة بأن دور المرأة فى بناء المجتمع والدفاع عن الوطن لا يقل فى خطورته وحيويته عن دور الرجل ، وذلك برغم صغر سنها إذ أنها مجرد طالبة بالسنة الثالثة بكلية الطب . لكن دراستها للطب لم تشغلها عن هموم مجتمعها ووطنها وعصرها ، بل كثيرا ما قالت لخالد إن الطبيب المثقف خير من غير المثقف وإن تساوى الاثنان فى الحنكة الطبية والجراحية .

استلقى خالد برأسه تماما على مسند مقعده وقد ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجهه . فقد كان من الطبيعى ومن المتوقع أن تفجر صداقته لليلى كل براكين الغيرة داخل سهام بحيث لم يعد قادرا على احتمالها أكثر من هذا مما أدى إلى قطيعة فعلية بينهما ، فى حين فشلت سهام فى خلع جذور حبها لخالد من أغوارها السحيقة ، و لم تملك سوى أن تنطوى على نفسها مع إغراق همومها فى العمل ليل نهار فى عيادة أبيها فى محاولة يائسة فاشلة لنسيانه !

لم تكن ليلى تجهل ارتباط سهام بخالد . كانت تشعر بالحرج الشديد من إقبال خالد عليها بحيث التمست لسهام العذر فى يقينها بأنها نجحت فى اختطافه منها . وكان من المستحيل إقناعها بغير ذلك وأن الأمر فى نظر ليلى لم يكن على هذا النحو ، فقد كانت تحبه لعقله وفكره ونضجه ووعيه وثقافته فى حين كانت سهام تحبه كزوج المستقبل . لذلك حرصت ليلى على ألا تتورط فى حب جارف مع خالد حتى تتأكد من مجرى المشاعر الحقيقية بينه وبين سهام . وظلت على هذه الحال حتى بعد القطيعة التامة

بين خالد وسهام لتأكدها من أن النار لاتزال تحت الرماد .

ومع ذلك لم تسلم ليلى من صراع كان ينهش نفسها بأظافر حادة .فقد اعتادت مواجهة الحقيقة مهما كانت قاسية أو مخيفة . لم تحاول أن تخدع نفسها بأنها غير متعلقة بخالد الذى صارحته ذات مرة فى غفلة من رقيبها الداخلى القاسى بأنها تحب كل شيء فيه : ثقافته وفكره ودقته فى التعبير عن خواطره ، ونظرته الإنسانية الشاملة ، وتصرفاته الحاسمة ، وحيوية حركته وتفكيره ، وسمرته ، وطوله الفارع ، وسواد عينيه ، وخشونة شعره ، وحدة نظراته ، وغلظة شفتيه بل وشاربه الدقيق !

فى تلك اللحظات المتفجرة بشتى المشاعر والتى يعتبرها خالد لحظات تاريخية لم يملك سوى أن يتدفق بكلماته المعبرة عن إعجابه العميق بقوة شخصيتها ، ونظرتها الثاقبة ، وسواد عينيها اللتين يومض فيهما بريق الذكاء ، وعشقها للثقافة والفكر والتاريخ ، وثقتها بنفسها ، وإيمانها بأن الطب رسالة وليس مجرد مهنة ، وانشغالها بالقضايا القومية أكثر من اهتمامها بقضاياها الشخصية ، ووجهها المتألق الأبيض ، وقوامها المستدير فى اتساق بديع !

لكنها كانت لحظات خاطفة كالبرق فى الليلة الظلماء ! إذ سرعان ما كان العقل يمسك بزمام المشاعر الجامحة . و لم ينقذ ليلى من حيرة هذا الصراع سوى انتقال أبيها الملحق العسكرى بالقاهرة إلى بغداد للعمل هناك . كان قد خيرها بين إكمال دراستها بالقاهرة أو السفر مع الأسرة لإكمالها فى بغداد . فآثرت السفر حتى تضع خالدًا موضع الاختبار

الحقيقى !فإذا كانت صداقته لها مجرد لهفة طارئة للصفو الذى تعكر بينه وبين سهام ، فسوف يعود إلى سهام عندما يخلو الجو من وجودها ، خاصة أن شيئا ما فى داخلها كان يؤكد لها أن هناك التزاما داخل خالد تجاه سهام ، أما إذا كانت هذه اللهفة الطارئة حبا جارفا فسوف يكتسح أمامه كل السدود مهما كانت عالية ومنيعة . ولن يحسم الموقف على حقيقته سوى الأيام . فلتتركها تفعل مفعولها حتى لا تقيم سعادتها على أنقاض تعسة لصديقة لاتكن لها سوى كل تقدير واحترام برغم غيرتها الجامحة .

كم صدم خالد عندما علم بعزم ليلى على الرحيل ، وفكر فى حسم الأمر بالزواج منها ؟! وفاتحها فى ذلك ، لكنها طلبت منه المرور بتجربة الاختبار الحقيقى لمشاعره حتى يتبين كل منهما حقيقتها تجاه الآخر . ذهل خالد لهذه الفتاة التى تجمع بين نعومة الحرير وصلابة الحديد و لم يشأ أن يبدو أضعف منها بعد أن شعر أنه لا يستطيع أن يفرض نفسه عليها أكثر من هذا ، وتمنى لها كل سعادة بعد أن تعاهدا على التراسل والزيارة المتبادلة على أمل التئام الشمل مرة أخرى .

لا ينسى خالد مشهد الوداع المؤثر . إنه لا يتذكر المواقف التى طفرت فيها الدموع من عينيه لندرتها ، لكن فيضان الدموع والطائرة على وشك الإقلاع أكد له أن جزءا حميما من حياته قد انتزع منه دون أن يدرى ، وهو الجراح البارع الذى يعرف جيدا معنى بتر عضو من جسد حى !

عاد إلى الوحشة والفراغ ، لكنه تسلح بوعيه ونضجه وتفكيره العقلانى فانهمك فى دراسته للانتهاء من رسالته للماجستير التى كان على

وشك أن يناقشها . خاصة وأن المراسلات لم تنتظم بينهما بل إنه استشعر فى لهجة ليلى فى خطاباتها الأخيرة رنة حزن وأسى تكتم أكثر مما تفصح .ولم يغب عن فطنة خالد أن الأحوال السياسية فى العراق لم تعد مستقرة ، خاصة وأن أباها لم يكن من رجال عبد الكريم قاسم ، وربما يكون قد ألقى به فى سجن أو معتقل . وانعكست هذه الأحوال على العلاقات المصرية العراقية مما أدى بدوره إلى انقطاع المراسلات تماما بين خالد وليلى . وكان هذا آخر عهده بها . ومع ذلك ظل فى نفس خالد شيء من ليلى إذ أنها لم تكن فتاة عادية ، بل كانت توأما لفكره وعقله وإحساسه .

أما سهام فكانت قد تأكدت من فشلها فى خلع جذور حبه من قلبها وإن كانت قد استسلمت لفكرة زواجه من ليلى كقدر لا فكاك منه . أصبحت حياتها كالأرض القاحلة التى تحتوى فى بطنها جذورا جافة لا تستطيع أن ترعاها أو أن تلفظها دون أمل فى هطول غيث يملأ شقوقها وفجواتها . لذلك لم تصدق سهام أذنيها عندما علمت بعودة ليلى إلى بغداد مع أسرتها للاستقرار هناك . كيف يخلو لها الجو فجأة بهذا الشكل ؟! كم أساءت الظن بليلى واتهمتها بأنها خاطفة رجال ؟! وإذ بها تترك الجمل بما حمل ! حسدتها على قوة شخصيتها ، وإرادتها الحديدية ، وتحكمها العجيب فى عواطفها ، وقدرتها على اتخاذ قرار مثل هذا دون أدنى تردد ، ونظرتها الثاقبة التى أكدت لها أن غريمتها لم تخرج تماما من حياة خالد ! فكان قرارها الذى هبط بالغيث على أرضها القاحلة ! لكن الشائبة التى عكرت صفو سعادتها أن ليلى شخصية لا يمكن أن تنسى حتى بالنسبة لها شخصيا !

عادت المضيفة بزيها الكاكى وهى تدفع مع زميلتها العربة المحملة بصوانى الطعام . وضعت إحداها على المائدة الصغيرة أمام خالد وسألته باسمة :

— شاى أم شراب مثلج ؟!

— شراب مثلج !

صبت له الشراب فى كوب ورقية وواصلت عملها مع بقية المسافرين .تجرع خالد الكوب مرة واحدة وكأنه يريد إطفاء الحمم المتأججة داخله . تأمل شريحة اللحم المشوى وطبق الخضروات والسلطة لكنه أشاح بوجهه عبر النافذة . كانت الطائرة تمخر عباب غلالة شفافة من الضباب الذى كشف عن سلسلة من التلال الصفراء الداكنة التى تلفحت بأردية الغروب التى تمزج الأطياف الرمادية بالبرتقالية .

كانت وطأة الوحشة داخله تتثاقل مع تراجع ضوء الشمس ، واشتد به الحنين إلى دعاء وأيمن برغم أنهما كانا فى وداعه منذ ساعتين فقط .نضحت عيونهما بالحيرة الدامعة المترددة بينه وبين أمهم ، لكنه أكد لهما أن غيبته لن تطول وسرعان ما يعود إليهم ليلتئم الشمل مرة أخرى . فهو ذاهب فى مهمة قومية لا يمكن أن يتملص منها .

غلبه هدير الذكريات فلم تلتقط أذناه أزيز الطائرة أو تعليمات القائد فى مكبر الصوت بين حين وآخر . كانت سهام قد أعدت العدة للعودة إلى خالد بمجرد خروج ليلى من حياته ، وقد قررت أن تبدو أمامه مختلفة تماما ، خاصة فيما يتصل بغيرتها القاتلة . وبالفعل عادت المياه إلى مجاريها

بينهما مرة أخرى خاصة وأنه كان يعانى من فراغ زاخر بوحشة قاتلة . سعد بالتغير الذى طرأ عليها لكن شكه فى هذا التحول جعله يتعمد التباسط مع الزميلات والصديقات أمامها ، ومع ذلك لم يبد عليها أى انفعال ، فتأكد أنها أدركت حقيقة سلوكها غير الناضج .

لم يدرك خالد أنها كبتت غيرتها فى أعماقها لأنها عجزت عن التخلص منها . كانت تمثل دور الفتاة الناضجة ، الواثقة من نفسها فى محاولة مستميتة للتشبه بليلى التى لا زالت تشكل تحديا خفيا لها . كانت الغيرة تفور وتمور فى أغوارها لأنها كانت تعتقد أن سفر ليلى هو السبب الفعلى فى قطع العلاقة بينها وبين خالد ، وليس لأن الحب قد مات من تلقاء نفسه . ولذلك ظل فى نفسها شيء من ليلى الغائبة فى العراق إذ أوحى إليها إحساس مؤلم ممض بأنها لا تزال متربعة على قلب خالد . ومع ذلك لم تترك سهام الفرصة تفلت من بين أصابعها .

وتم عقد الزواج . لكن غيرة سهام تحولت إلى قلق عارم بسبب تأخرها فى الإنجاب . وكثيرا ما أوضح لها خالد أن مثل هذا القلق لا يليق بها وهى الطبيبة التى تحمل على كاهلها رسالة إنسانية عظيمة تجعل منها أما لكل من تعالجهم . ومع ذلك ظلت تحترق بلهيب القلق حتى منّ عليها الله بدعاء بعد سبع سنوات عجاف من الزواج . عندئذ قررت أن تترك عملها بعيادة أبيها كى تستقر فى البيت لرعاية طفلتها .

ظل خالد عدة سنوات يحاول إيهام نفسه بأنه زوج سعيد ، لكنه أدرك أن مواجهة الحقيقة المرة خير ألف مرة من حياة الوهم الحلو ، ومع ذلك لم يكن من النوع الذى يأخذ قضية الطلاق ببساطة بل كان يؤمن بأن

الحفاظ على سلامة البيت من أجل الأطفال هدف مقدس لايمكن التفريط فيه أبدًا ، خاصة بعد أن رزقه الله بأيمن . لكن كيف يحل هذه المعادلة الصعبة بل والمستحيلة ؟!

كان خالد قد أدى الخدمة العسكرية كضابط احتياط للاستفادة من دراسته الطبية وتخصصه فى الجراحة . وشارك بعد ذلك فى حرب أكتوبر . وكان سعيدا بالحياة العسكرية التى استهوته أكثر من السلك الجامعى. فهو يحب النظام والدقة والكفاءة فى كل ما يفعله ، ويفضل إجراء عملية ينقذ بها حياة جريح على إلقاء محاضرة نظرية فى قاعة مختنقة بآلاف الطلبة . ولذلك قرر أن يعمل طبيبا بالقوات المسلحة حتى يجمع بين دراسته الطبية وتطلعاته الوطنية والقومية التى تشربها من أبيه منذ صباه المبكر .

كان أجمل ما فى الحياة العسكرية أنها حياة بمعنى الكلمة ، يمكن أن تستغرق معظم وقته وتكاد تعزله تماما عن الحياة المدنية . أما العمل بالجامعة فيتيح لزوجته أن تطارده بالاتصال التليفونى على أقل تقدير . فقد انهارت السدود التى بنتها أمام فيضان غيرتها ، وأصبحت تشك فى أية زميلة أو طالبة تحدثه أو تتصل به بطريقة أو بأخرى . حاول أن يدفعها للعمل مرة أخرى بعيادة أبيها بعد أن كبر أيمن والتحق بالحضانة لكن يبدو أنها قررت نذر حياتها لرصد حركاته وسكناته ، مما أصابه بإحساس الفريسة المطاردة فى كل لحظة وفى كل مكان .

عادت المضيفة وزميلتها لجمع الأطباق الورقية الفارغة فوجدت صينية خالد كما هى لم تمس . انحنت عليه فى عذوبة دافقة :

ــ نحن فى زمن لابد أن نأكل فيه حتى ولو لم يكن لناشهية !!

كيف قرأت هذه الجميلة اللماحة داخله ؟! أجابها مبتسما :

ــ ستنفتح شهيتى عندما نصل إلى بغداد !!

غمرته عذوبتهاالضاحكة :

ــ ربما اضطررت لتناول الطعام فى الظلام الحالك !!

حسدها على روحها المعنوية المرتفعة برغم كل شىء :

ــ هل زادت الغارات الجوية إلى هذا الحد !؟

ــ إنهم يركزون الآن بالطائرات والصواريخ على الأهداف المدنية بعد أن نجحت طائراتنا فى بلوغ أقصى أطراف إيران !!

ــ لم يكن أحد يتصور أنهم مسعورون بهذا الشكل !!

ــ لأنهم كانوا يظنون أن الطريق إلى بغداد سيكون نزهة ممتعة !!

ــ جنون العظمة يمكن أن يصور لصاحبه أى شىء !!

ــ وسيكون مصيزهم مصير كل مجانين العظمة عبر التاريخ !!

ثم رفعت إصبعيها بعلامة النصر وهى تبتسم حاملة الصينية إلى عربتها الصغيرة التى دفعتها إلى الصف التالى من المقاعد .

ــ أين أنت يا سهام لتتعلمى كيف تكون نظرة المرأة إلى الحياة ؟!

قالها لسان حاله وهو يحاول الاسترخاء فى جلسته وبوادر الغروب تحيط بجسد الطائرة الضخمة . لم يكن ظنه فى محله عندما انتقل للعمل بمستشفى القوات المسلحة بالمعادى إذ نجحت سهام فى مطاردته حتى عقر مكتبه وقلعته التى كان يظن أنها حصينة . كانت تتذرع بحجة التريض مع طفليها بالسيارة لتقوم بجولات تفتيشية مفاجئة إلى المستشفى

الذى سرعان ما كان يفتح لها أبوابه بمجرد وصولها . و لم يكن من المعقول أن يصدر أوامره بمنعها من الاتصال أو الدخول . فليس هناك من الطوارىء ما يستدعى ذلك .

فى أول زيارة لها للمستشفى لمح الصدمة فى عينيها عندما رأت الطبيبات والحكيمات فى زيهن العسكرى وهن يهرعن لتلبية رغباته ،بل إنها ظنت فى سلوكهن المنضبط المتحفظ تجاهلا لها . وعندما وجد خالد أن الأمور تتفاقم بلا رابط اقترح عليها أن تعرض نفسها على أحد الأطباء النفسيين من زملائه ، لكنها رفضت الاقتراح باستنكار شديد وتعليق مرير : لم أصل إلى مرحلة الجنون بعد !!

لكنه آمن أنها على وشك بلوغ هذه المرحلة إذ أن غيرتها امتدت لتشمل اهتمامه وتتبعه لأنباء الحرب العراقية الإيرانية لظنها أنه اهتمام بالحبيبة الغائبة التى رحلت إلى بلدها بلا عودة ، وكثيرا ما أقسم لها أن المراسلات قد انقطعت و لم يعد يعرف عنها شيئا منذ رحيلها . لكن سهام كانت تتظاهر بالتصديق حتى لا تزداد الأمور سوءاً على سوء ، ثم تعود مرة أخرى للتنفيس بطريقة أو بأخرى عن غيرتها المشتعلة .

فجأة أضاء الأفق الذى تخترقه الطائرة خاطر مستحيل لكنه بديع ورائع : ماذا لو قابل ليلى بعد كل هذه الغيبة ؟! ابتسم فى سخرية . لن يسمح لنفسه بهذه الأوهام حتى لا يقع ضحية للوهم ! يكفى أن زوجته ضحية للغيرة ! ومع ذلك ترك نفسه لهذا الخاطر البديع الرائع الذى لا يخرج بأية حال عن قانون الاحتمالات !

أصبح جو البيت جحيما لا يطاق . فالساعات التى يعود فيها إلى بيته

ليستريح وينام تتحول إلى تحقيق وتحريات عن الذين قابلهم وتحدث معهم ، ولماذا تأخر حتى تلك الساعة ؟! والتليفونات التى تدق أجراسها دون أن يرد أحد ؟! وكثيرا ما أوضح لها أنه بصفته أحد كبار الجراحين بالقوات المسلحة لابد أن يتمتع بحياة أسرية هادئة وأعصاب قوية ، إذ أن حياة الذين يجرى لهم العمليات معلقة بدقة أصابعه وثبات يديه ، وأنه ليس مطالبا بتقديم كشف يومى تفصيلى عن حركاته وسكناته ، كما أنه ليس مسئولا عن مكالمات تليفونية لا ترد !!

وكثيرا ما كانت سهام تعتذر وتتأسف لاندفاعها المحموم وراء هواجسها ومخاوفها ، لكنها بنفس الاندفاع كانت تعود إلى نار غيرتها لتحترق بها دون أن تستطيع لها دفعا . ولم يعد خالد قادرا على احتمال هذا الجحيم بعد أن قضى ليلة طويلة معها فى جدال ونقاش عقيمين كالعادة . وفى الصباح ذهب لإجراء عملية جراحية فى الصمام الميترالى لأحد مرضى القلب الذى حتمت حالته تغيير الصمام إنقاذا لحياته . إنه لا ينسى كيف تصبب العرق الغزير على جبهته برغم تجفيف الحكيمة له ، وكيف ارتعشت أصابعه ، وشعر بعجز ساقيه عن حمله بعد ساعة واحدة فقط من بدء العملية ، وهو القادر على إجراء العمليات الجراحية التى تتجاوز ست أو سبع ساعات . لا يمكن أن ينسى نظرات مساعديه وحرج الحكيمات وقلب المريض مفتوح أمامهم ورعشة أصابعه وحيرة عينيه ، لكنه سرعان ما حسم الموقف الكريه بترك العملية برمتها لمساعده كى يكملها . وظلت أعصابه مشدودة على أسياخ محماة حتى اجتاز المريض مرحلة الخطر . بعدها قرر حسم الموقف بعد أن دفعته سهام إلى

نقطة الاختيار بين أن يكون أو لا يكون !

هاجمته فكرة الطلاق بعنف ، لكن الموجة كانت سرعان ما تنحسر عن شواطىء عقله الحائر الشارد كلما لمح فى أفق وجدانه صوت دعاء وأيمن . تمنى من صميم قلبه المحترق أن يلهمه الله بفكرة تخرجه من هذا الخضم المتلاطم كحبل يلقى لغريق وسط دوامات اللجج . و لم يخيب الله رجاءه إذ كان جالسا ذات مساء فى غرفته بالمستشفى مع بعض زملائه ودار الحديث حول آخر تطورات الحرب العراقية الإيرانية ، والدور الذى تنهض به القوات المسلحة المصرية فى دعم المجهود الحربى للقوات المسلحة العراقية فى مواجهة الغزو الإيرانى المحموم . ووسط شجون الحديث ومضت فى ذهنه المعتم فكرة مارقة كالبرق وقد امتزجت بتساؤل ساخر : كيف ظلت هذه الفكرة نائية عن ذهنه طوال هذا الوقت ؟! هل كان السبب فى هذا ، تلك الحرب التى أعلنتها عليه سهام ولا تزال تشعل من أوارها حتى بلغت به ذلك الموقف المخزى المخجل فى غرفة العمليات ؟!

لم يعد الماضى يهمه بقدر ما أصبح المستقبل شغله الشاغل.أخفى الفكرة بين جوانحه كبخيل وجد كنزا ، فلم يشأ أن يفتح المعركة مع سهام وفى انتظاره صباح اليوم التالى عملية جراحية شاقة ، أراد أن يثبت فيها لنفسه قبل أن يثبت للآخرين أنه لايزال الجراح الماهر البارع الذى يتقن عمله أشد ما يكون الإتقان ، وأن ما حدث فى العملية الماضية كان

مجرد طارىء عابر لن يتكرر .

وبالفعل دبت فى عروقه روح جديدة غمرته بالتفاؤل والحيوية التى أدهشت من حوله أثناء العملية التى استمرت سبع ساعات دون أن يناله أى تعب . بل إن السخرية المثيرة للضحك والرثاء فى آن واحد بلغت قمتها عندما أوحى انطلاق خالد وحيويته المتدفقة لسهام بأنه يعيش قصة حب حقيقية وفعلية هذه المرة ، ولذلك قررت هى أن تفتح المعركة التى طالما فكر فى كيفية فتحها معها . وعندما سمعت أذناها ما لم يكن يخطر ببالها ، هوت فى بئر الذهول وهى تصرخ وتندب حظها العاثر . لكن خالدا لم يتراجع عن قراره وخيرها بين الطلاق أو الذهاب إلى الجبهة . وعندما سمعت كلمة الطلاق تنطلق لأول مرة من بين شفتيه مع شظايا الشرر من عينيه ، تأكدت أنها بحماقتها وطبيعتها الجامحة ورعونتها الطائشة قد دفعته إلى أقرب مسافة من نقطة اللاعودة ، فلم تملك فى النهاية سوى أن ترضخ لأنها لا تستطيع أن تتصور الحياة بدونه إذ أن احتمال عودته من الجبهة قائم أما عودته من الطلاق فأمر يبدو مستحيلا . وأدركت ولكن بعد فوات الأوان أن ضيق أفقها وغيرتها قد دفعتها إلى كل هذه الاضطرابات والتعقيدات التى كانت فى غنى عنها . و لم يتبق لها سوى أن تنتظر ما تأتى به الأيام وهى التى كانت تظن أن كل شىء تحت سيطرتها حتى أفكار زوجها وخواطره . وفى وداعها له فى المطار شعر بأن غيرتها استحالت إلى إحساس قاتل بالذنب من جراء ما ورطت نفسها فيه ، ودعا الله فى أعماقه أن تنصهر ذاتها فى بوتقة الاعتراف بالذنب والخطأ حتى ترى نفسها فى ضوء جديد ومرآة صادقة .

تلفحت الطائرة بأردية المغيب الرمادية ، وأبطأت من سرعتها مع هبوطها الوئيد لتتكشف بعض الحقول المغمورة بالمياه وأشجار النخيل الشامخة على ضفاف قنوات بدت خطوطا فضية . أعلن القائد فى مكبر الصوت ربط الأحزمة والامتناع عن التدخين ، إذ بعد خمس دقائق ستهبط الطائرة فى مطار صدام .

خفق قلب خالد خفقات متلاحقة وعنيفة وقد عجز عن تبين ملامح بغداد الحبيبة التى كثيرا ما وجدها فى زياراته السابقة عروسا فى ليلة زفافها وقد تألق جيدها بعقود الماس المتدفقة مع أمواج دجلة . هـذه المرة اتشحت بأردية داكنة كأنهاأم فى حداد على أبنائها الشهداء فى معركة العروبة والكرامة والمصير .

رزحت أنفاس خالد تحت وطأة هجمات عاتية من الكآبة ولسان حاله يلهج والطائرة تشرع فى الهبوط :

— يا بغداد .. عليك سلام !

(٢)

استرخت ملامح صفاء وزوجها سعدون عندما أعلنت لوحة المطار هبوط الطائرة العراقية القادمة من القاهرة . علقت وهى تحاول ابتلاع لعابها الجاف :

ــ الحمد لله .. انتهت الغارة فى الوقت المناسب لتهبط الطائرة بسلام !

لم تكن إضاءة صالة الوصول كاملة وإن كشفت عن فخامتها الرخامية والمرمرية التى عكست المصابيح المتناثرة والساقطة على الوجوه والعيون الواجمة أو المتلهفة . أضافت صفاء ونظراتها لا تفارق بوابة الوصول :

ــ كانت غارة طويلة وعنيفة .. لابد أن صاروخا ضخما سقط فى قلب بغداد !! أنا فى غاية القلق على طارق وسلمى !! كان من الأفضل اصطحابهما معنا .. على الأقل حتى يكونا فى استقبال خالهما !!

ربت سعدون على ظهرها فى حنان دافق :

ــ لا تقلقى .. إنهما يستمتعان بصحبة جدتهما وبركتها !!

لاحظت صفاء محاولة زوجها لتغطية قلقه بابتسامة شاحبة فى ضوء المصابيح الخافتة . بدأ توافد القادمين من بوابة الوصول فأسرعت صفاء إلى أولهم سائلة :

ــ القاهرة ؟!

فأومأ برأسه وبريق ابتسامة فى عينيه :

— نعم !!

ودفع عربته المحملة بالحقائب وخلفه تدفق طابور القادمين لكن وجه خالد لم يبد بينهم بعد . حك سعدون شاربه الغليظ وهو يقول بصوته الجهورى :

— الطائرة تحمل أكثر من ثلاثمائة راكب .. وليس بالضرورة أن يهبط خالد أولهم !!

تتابع موكب الوجوه والحقائب والعربات وأخيرا فى عمق ممر الوصول بدا خالد بوجهه الأسمر ، وطوله الفارع ، وشعره الخشن ، ونظراته الحادة يدفع عربته أمامه وقد ركز عينيه السوداوين على وجوه المستقبلين حتى لمح وجه صفاء الحبيب بكل لهفته فأسرع بدفع العربة حتى كاد أن يصطدم بمن كان أمامه لولا تداركه الأمر . خرج من الباب الزجاجى الضخم ودفع العربة جانبا ليحتضن صفاء التى أجهشت بالبكاء وهى تتحسس وجه أخيها بأناملها الدقيقة وسعدون يراقب فيضان العواطف المنهمرة فى انفعال انعكس على وميض عينيه واهتزاز شفتيه .

لم تتوقف كلمات خالد وهو يترك صفاء لاحتضان سعدون وطلائع الدموع تتجمع بين جفونه :

— أوحشتمونى كثيرا .. أوحشتمونى كثيرا جدا .. كيف حال طارق وسلمى ؟! وكيف حال بغداد ؟! والعراق كلها ؟!

أسرع سعدون لدفع عربة خالد أمامه :

— هيا بنا من هنا .. ففى السيارة والبيت متسع للحديث عن كل

شىء !!

أمسكت صفاء بيد خالد وقادته خلف سعدون المسرع بخطوات واسعة . كانت لهفة سعدون للعودة إلى البيت والاطمئنان على من فيه واضحة لصفاء التى لم تحاول الإفصاح عن مخاوفها المرعبة وخواطرها السوداء . فالحمى الإيرانية لا تفرق بين المناطق العسكرية والأحياء السكنية ، فكيف تكون الحال إذا كان بيتهم قريباً من وزارة الدفاع هدف معظم الغارات الإيرانية ؟! وإذا كان الصاروخ قد هز بغداد كزلزال عات ؟! لا يستطيع أحد أن يمنع المكتوب لكن إلى متى ستظل هذه الحرب المجنونة التى دخلت عامها الثامن دون بشائر لنهاية حاسمة لها ؟!

خرجت صفاء من غمرة خواطرها وسعدون يضع الحقيبة الكبيرة فى خلفية السيارة التى كانت قابعة فى ساحة الانتظار خارج المطار . امتزج السكون بالعتمة فقال خالد وهو يجلس فى المقعد الخلفى :

ـــ ليست هذه بغداد التى عرفتها متألقة دائما !!

أدار سعدون المحرك دون أن ينظر إلى صفاء الجالسة إلى جواره . قال والسيارة تنطلق فى الطريق المؤدى إلى قلب بغداد :

ـــ دوام الحال من المحال ! ستتكسر كل أمواج الغزو الفارسى على صخرة العراق التى كانت دائما الحارس الأمين للبوابة الشرقية للوطن العربى كله !

أحس خالد لأول مرة بسخونة الجو تسرى فى أعطاف حلته الرمادية برغم الليل وأواخر سبتمبر الذى كان يسلم أعلامه لأكتوبر . كانت المركبات العسكرية تنهب الطرقات فى حين تناثر رجال الشرطة الحربية

عند المنحنيات ومفترق الطرق . ومع ذلك لم يقلل سعدون من سرعة سيارته الألمانية الصغيرة بحذاء المركبات المارقة يمنة ويسرة . قالت صفاء ونظراتها عبر النافذة المفتوحة :

ـــ حالة الطوارىء على أشدها !

التفت إليها خالد متسائلا فى قلق :

ـــ هل وقع شىء جديد ؟!

ضحك سعدون ضحكة مبتورة فى محاولة لإخفاء قلقه :

ـــ وقع صاروخ منذ ساعة تقريبا فى قلب بغداد !!

ثم ضاعف من سرعة السيارة حتى بدت مشارف بغداد فى الأفق ! لكن وهجا بعيدا تدفق من قلبها وقد امتزج بدخان اختفى سواده فى ظلمة السماء . أدركوا فى الحال أن بعض الحرائق التى أحدثها الصاروخ لا تزال متأججة . شعرت صفاء كأن الصاروخ قد اخترق قلبها هى !! ران عليهم صمت ثقيل كئيب لم يقطعه سوى صوت محرك السيارة الرتيب ثم أبواق سيارات الإطفاء والإسعاف على بعد يتلاشى كلما توغلت السيارة بين البنايات والحدائق . سطعت صورة طارق وسلمى فى مخيلة صفاء فلم تملك سوى أن يلهج لسانها :

ـــ يارب ! يارب !

لم يستطع خالد أن يحتمل وطأة الصمت أكثر من هذا :

ـــ ما كل هذا الحقد الذى يكنه الإيرانيون للعرب ؟!

أوقف أحد جنود الشرطة العسكرية السيارة بإشارة من يده :

ـــ الطريق مغلق من هنا .. استدر عن طريق اليسار !

نطق لسان صفاء دون تفكير :

ـــ أين وقع الصاروخ ؟!

أجاب الجندى وذراعه تحفزهم إلى الانطلاق :

ـــ عند نهاية شارع السعدون ! تفضلوا ! مع السلامة !

تنفست صفاء ومعها سعدون الصعداء وإن لم ينقشع القلق تماما إذ أن أبواق سيارات الإسعاف والإطفاء اللاهثة خيمت على عتمة المدينة بغلالة كثيفة من الكآبة . انطلق سعدون بالسيارة يسارا كما أشار له الجندى وهو يقول :

ـــ يبدو أنهم منعوا المرور فى هذه المنطقة لحفرة كبيرة صنعها الصاروخ ؟!

غمرت صفاء موجة جديدة من القلق والكآبة والوساوس :

ـــ من أدرانا أنه صاروخ واحد!

لم يحتمل سعدون وساوسها القاتلة :

ـــ سنصل إلى البيت وسنعرف كل شىء ؟!

علق خالد وعيناه على الشارع الذى تنهبه السيارة :

ـــ خيرإن شاء الله !

انحرفت السيارة يمينا لتنطلق بحذاء نهر دجلة الذى لم تتألق صفحته كعادته تحت الأضواء التى قيدت وكبلت تحت وطأة الغارات والصواريخ المسعورة . تحولت صفاء إلى عيون تكاد تسبق السيارة للاطمئنان على ولديها ، وكلما بدا صف المبانى الذى يقع بيتها فى نهايته سليما قائما كما هو ، استردت بعض أنفاسها اللاهثة المتقطعة ودقات قلبها التى تكاد

تسمع بأذنيها . وكلما وجدت الشارع مفتوحا ودون أفراد من الحرس أو الشرطة ينبئون بهواجس مخيفة ، أدركت أن الله قد حفظ لها أسرتها الصغيرة . وعند المنحنى الأخير وجدت البيت الأبيض الصغير يطل بشرفته ذات السور الحديدى الذى أطل منه طارق وسلمى وخلفهما جلست الجدة فى طرحتها البيضاء .

سرعان ما اختفيا من الشرفة ، وبمجرد وقوف السيارة أمام الطوار كانا ينطلقان من مدخل البيت ويعبران الحديقة الصغيرة لتتلقفهما ذراعا أمهما بالأحضان والقبلات والدموع فى حين وقف سعدون وخالد يتابعان الموقف فى تأثر شديد ، وينغمسان أيضا فى الأحضان والقبلات ليصعد الجميع على درجات السلم المغطاة ببساط أحمر حيث وقفت الجدة عند أعلاه لترحب بخالد وتحتضنه . كانت القلوب مضيئة بنور الأمل ووهج العاطفة برغم أردية العتمة الثقيلة التى جثمت على كاهل المدينة .

جلسوا فى قاعة المدخل ذات الطراز العربى الجميل . عاد سعدون بعد أن وضع حقيبة خالد الكبيرة فى غرفة جانبية . التصقت سلمى بأمها فى المقعد الكبير وهى تقول :

ـ تصورنا الصاروخ زلزالا !

أضاف طارق الذى بدت مخايل الرجولة المبكرة فى صوته :

ـ سمعنا بعض زجاج النوافذ القريبة يتطاير .. ومعه صرخات الأطفال والصبية !!

سعد خالد بطارق الذى يتكلم عن الصبية كما لو لم يكن واحدا منهم فابتسم وسعدون يشاكسه :

— وأنت يا طارق ألم تصرخ ؟!

— سلمى صرخت وبكت .. لكننى نهرتها لوجود رجل معها !!

ابتسمت الجدة فى حنو بالغ :

— كان طارق نعم الرجل فى غيبتكم !!

قال سعدون فى حسم :

— هيا الى المذاكرة !

ابتسمت سلمى فى حياء وخجل :

— لم يمر على بداية العام الدراسى أكثر من أسبوع !

لم يتخل عن لهجته الحاسمة :

— شعارنا يقول : يجب ألا تؤثر الحرب على المسار الطبيعى لحياتنا ! انتهيا من المذاكرة أولا ثم استمتعا بصحبة خالكما ثانيا !

نهض طارق فى اعتداد باسم :

— أعرف أن المذاكرة هى جبهتنا التى نخوضها للنصر العلمى ! عن إذنكم !

جذب أخته من جلستها الملتصقة بأمها فتبعته صاغرة وفى أعقابهما الجدة التى قالت لخالد قبل أن تختفى :

— نورت بغداد !

قالت صفاء لأخيها :

— كيف حال سهام ودعاء وأيمن ؟! شغلتنا الهموم عن السؤال عنهم !

أجاب خالد فى اقتضاب :

— لا جديد غير ما قلته فى خطاباتى !

ضحك سعدون وكأنه يزيح عن قلبه بقايا القلق الذى نهشه وهم فى الطريق إلى البيت :

— يبدوا أنك اكتشفت أن جحيم الحرب أرحم من جحيم الغيرة ؟!

نظر إليه خالد فى عتاب متسائل :

— وهل تظن أن الموضوع بهذه البساطة ؟!

— رغبت فى مداعبتك !! آه كم أوحشتنا المداعبة فى هذا الزمن المتجهم ؟!

— لكننى لاحظت أن الروح المعنوية مرتفعة للغاية ؟!

— أصبحت الحرب غذاء يوميا ! نحن نعيش حالة جديدة وروحية جديدة !! إنها البوتقة التى سيظهر منها معدن الشعب العربى فى العراق على حقيقته أمام العالم أجمع !

تدخلت صفاء فى الحديث :

— حديث الحرب والسياسة ذو شجون ويمكن أن يستغرق السهرة كلها .. فلنقطع بضع دقائق لحديث الأسرة .. ثم أترك لكما المكان لإعداد العشاء !

عاد سعدون إلى ضحكته المرحة :

— آه منكن يا معشر النساء ! اهتمامكن الأساسى بأخبار أمثالكن من النساء !!

لوحت صفاء بيدها :

— فى آخر خطاب لك ذكرت ليلى البصرى صديقة الدراسة .. فهل

يعقل أن تشعر زوجة بالغيرة من زميلة لزوجها انقطعت صلته بها منذ ما يقرب من عشرين عاما ؟!

— لك الحق فى عدم تصديق هذا الموقف .. فما يدور بينى وبين سهام هو اللامعقول بعينه !!

— لا تنس أنها كانت وحيدة أبويها وطفلتهما المدللة .. والطفل المدلل بطبيعته يحب أن يكون محور اهتمام كل الذين حوله !

— فى استطاعتى أن أدللها أيضا .. لكن أن تتحول الغيرة إلى جحيم يومى فهذا أمر لا يطاق !!

— ألم تعد تعرف شيئا على الإطلاق عن ليلى ؟! ربما سمعتك مرة دون أت تدرى وأنت تذكرها بحنان واضح أو تدلى عنها بمعلومة معينة ؟!

— لم يجر ذكرها على لسانى أبدًا !!

ضحكت صفاء مداعبة أخاها :

— المشكلة أن ليلى — على قدر ما تسعفنى الذاكرة — كانت جميلة وجذابة أكثر من اللازم !!

وكأن صفاء لمست وترًا مشدودًا داخله فإذا به يسألها دون أن يدرى :

— بالمناسبة .. ألم يرد ذكر اسمها أمامك فى أى مجلس ؟! وهل هى فى العراق أم فى مكان آخر ؟!

انفجر سعدون ضاحكا وهو يلمس شاربه الكث بأصابعه بعد ترقب ممتع للحوار :

ــ يقولون ليلى بالعراق مريضة   يا ليتنى كنت الطبيب المداويا

اختلطت سمرة وجه خالد بحمرة ملحوظة :

ــ لا تترك الظنون تذهب بك بعيدا يا سعدون . ما المانع فى رغبة زميل فى أن يعرف شيئا عن زميلة له فى أثناء وجوده بوطنها ؟!

استمرأ سعدون قهقهته التى يبدو أنه افتقدها منذ زمن :

ــ وما المانع فى أن يعيش الزميل قصة حب فى زمن خلا من كل الأحلام الرومانسية ؟! قصة فى منتهى الرومانسية .. تجمع بين جحيم الحب وجحيم الحرب وجحيم الغيرة .. كم أوحشتنا هذه القصص والأفلام ؟!

لكزته صفاء فى كتفه معاتبة فى تساؤل :

ــ وهل تريد أن تجرب حظك ؟!

لم يتخل سعدون عن دعابته المتدفقة :

ــ الحظ يأتى للإنسان مرة واحدة .. وقد أتى إلىّ يوم رأيتك لأول مرة .. وأنا لست طماعا .. فالطمع يقل ما جمع !!

انتهز خالد لحظات الصمت ليعيد الكرة :

ــ لم تجيبى على سؤالى ؟!

ــ العراق بلد كبير !! ربما كانت مشهورة فى مجتمع البصرة ؟!

ــ كانت تعيش مع أسرتها فى بغداد ! وأعتقد أن « البصرى » مجرد لقب لأسرتها ؟!

تدخل سعدون مشاكساً مرة أخرى :

ــ ما أروع أن تتحول الزمالة إلى صداقة .. والصداقة إلى حب ؟!

نظر إليه خالد معاتبا فاستطرد سعدون بنفس الابتسامة :

— حب أخوى !

طغت الجدية على ملامح خالد حتى بلغت حد التجهم :

— فى الواقع .. ليلى شخصية لا تنسى .. ليس فقط بالنسبة لى ولكن بالنسبة لكل من عرفوها .. ليست بسبب جمالها وجاذبيتها .. ولكن لعقلها المتفتح الناضج .. وثقافتها الرفيعة العميقة .. وإيمانها بأن دور المرأة فى بناء المجتمع والدفاع عن الوطن لا يقل فى خطورته وحيويته عن دور الرجل !! آن الأوان لندرك أن الحب التقليدى ليس العلاقة الوحيدة الممكنة والمثمرة بين الرجل والمرأة .. بل هى رابطة أقوى وأعمق وأشمل من هذا بكثير !!

لم يصمت سعدون برغم أن خالدًا ظن أنه أفحمه :

— لقد أخطأت طريقك يوم عملت بالطب والجراحة .. كان لابد أن تعمل بالكتابة والصحافة .. فلك قدرة على تحويل أية فكرة أو حتى دعابة عابرة إلى قضية ساخنة متفجرة !!

نهضت صفاء بابتسامة على ثغرها :

— كان الله فى عون سهام .. لابد أن هذا الرأى بلغها بطريقة أو بأخرى !

وقبل أن يرد عليها كانت قد اختفت لإعداد العشاء . نظر خالد إلى سعدون :

— لا أعرف الموقع الذى سيرسلوننى إليه حتى الآن ؟! عموما غدًا سأسلم نفسى !!

ـ أعتقد أنك ستذهب إلى البصرة .. فهى فى أشد الحاجة إلى الدعم .. فهى تصد أكبر عدد من الضربات المحمومة .. عملت بها مراسلا حربيا ثلاث سنوات .. وجدت فيها من قصص البطولة والشهادة والتضحية والفداء ما يعجز القلم عن وصفه !

كان خالد على وشك أن يوصيه خيرا بأسرته إذا لم يعد من جبهة القتال ، لكنه سرعان ما طرد الخاطر الكئيب . ففى مسائل الحياة والموت يتحتم على الإنسان أن يتخلى عن التخطيط ! فإذا كان الإنسان لا يعلم مصيره على وجه اليقين فى زمن السلم والحياة الرتيبة فهل يمكن أن يدرك شيئا عن المصير نفسه فى زمن الحرب واللحظات العصيبة ؟!

أخرج سعدون خالدا من شروده وكأنه يقرأ أفكاره :

ـ صحيح أن الوطن يمر بلحظات عصيبة الآن .. لكن صمودنا فى البصرة .. وعلى الجبهات الأخرى .. وقدرة طيارينا الأبطال على تغطية كل المدن الإيرانية وإنزال ضربات ساحقة بها .. يؤكد أن النصر آت لا ريب فيه !!

هز خالد ساقه اليمنى فى عصبية واضحة :

ـ برغم قراءاتى المتعددة عن الحرب العراقية الإيرانية .. فإننى لا زلت عاجزا عن لمس جذورها الفعلية !!

ـ منذ أن انفصل العراق عن التبعية العثمانية وأصبح يتمتع باستقلال سياسى .. ومنذ أن أصبحت إيران دولة حديثة .. أخذت تطلق التصريحات بعدم الاعتراف بالحدود القديمة .. وبالفعل شرعت فى افتعال المشكلات مع العراق .. وعندما تسلم حزب البعث العربى

الاشتراكى السلطة السياسية .. وتولى مقاليد الحكم فى العراق .. تذرع بكل ما أمكنه من صبر وحكمة على اعتداءات سافرة .. وعلى تدخلات فى شئونه الخاصة .. افتعلت إيران إلغاء معاهدة ١٩٣٧ واتفاقية الجزائر ١٩٧٥ خصوصا بعد تسلم خمينى وزمرته الحكم فى إيران !

— ولماذا لم يقم العراق بتنوير الرأى العام العالمى حتى يعرى النظام الإيرانى على حقيقته ؟!

— أعلنت المذكرات العراقية إلى المحافل الدولية الكثير من الاعتداءات الإيرانية على حدود العراق وقراه ومدنه فى المناطق الشرقية .. منها ٢٩٣ مذكرة تشير إلى الانتهاكات الإيرانية للأعراف الدولية ولحسن الجيرة .. بالإضافة إلى ٢٤٤ اعتداء عسكريا إيرانيا خلال الشهور الثلاثة التى سبقت شهر أيلول عام ١٩٨٠ .. و ٢٤٩ خرقًا جويًا !

— ولكي تفعل إيران كل هذا .. بادرت بالغاء اتفاقية الجزائر التى تنص على احترام السيادة لكل من البلدين !

— هذا صحيح تماما .. ولذلك لم يكن أمام العراق إلا أن يبدأ فى عمليات الرد العسكرى لإبعاد خطر اعتداءات القوات الإيرانية على الأراضى العراقية .. واستعدادها لاحتلال مدن العراق فى الشمال وفى الوسط وفى الجنوب .. وكانت المعارك البطولية الكبيرة التى أوقفت زحف قوات الفرس .. تحولا كبيرا على صعيد الحرب فى الداخل والخارج حيث كشفت هذه المعارك الأطماع فى الغزو والاحتلال عن الوجه القبيح لحكام إيران أمام الرأى العام العربى والعالمى !!

— وطبعا كان لمدينة البصرة نصيب الأسد فى هذه المعارك ؟

ـــ بلا جدال .. فهى المدينة الجنوبية الواقعة على الضفة الغربية لشط العرب من جهة وعلى الضفتين منه من جهة ثانية .. وتواجه نيران مدفعية الأعداء والقصف يوميا استعدادًا لغزوها من قبل القوات الإيرانية !

ـــ واضح أن الإيرانيين لم يتوقعوا أبداً أن تصبح البصرة الصخرة التى تتكسر عليها موجات غزوهم المتتالية ؟!

ـــ حدثت معارك كبيرة هائلة على حدود مدينة البصرة كمعارك شرق البصرة الأولى والثانية وملحمة تاج المعارك .. واليوم العظيم .. ومعارك الميلاد الميمون .. كلها معارك ضارية أوقف بها الجيش العراقى القوات الإيرانية الغازية وأوقع بها الدمار فى المعدات وفى الأفراد !

ـــ لم يكن أحد يتصور كل هذا الشر الذى يبيته النظام الإيرانى لمدينة البصرة !!

ـــ منذ البداية خطط لعزل البصرة عن مدن العراق بالعمل على احتلالها عسكريا حتى يهيمن استراتيجيا على العراق وعلى دول الخليج برا وبحرا .. وبالفعل قام بغزو مثلث الفاو وجزيرة أم الرصاص فى التاسع والعاشر من شباط ١٩٨٦ فى ظروف أعانت العدو !!

ـــ هل كانت ظروفا عسكرية أم جغرافية ؟

ـــ كانت مزيجا من هذه وتلك .. لم يكن فى منطقة الفاو آنذاك سوى لواء واحد من الجيش .. كما أن طبيعة المنطقة الوعرة والمحاطة بالمياه مكنت الإيرانيين الغزاة من المغامرة الصعبة !!

ـــ لكن هذه الظروف يمكن أن تكون سلاحا ذا حدين !

ـــ وهذا ما وقع بالفعل لأن صعوبة المغامرة ذاتها تجلت أمامهم يوما

بعد يوم من حيث البيئة والمناخ والعزلة العسكرية ! وسرعان ما ضيقت قواتنا الخناق على القوات الغازية وذلك بوضعها فى جزء من مثلث الفاو وحدت من حركتها فى التموين وفى خطوط المواصلات وفى التقدم نحو أهدافها .. ساعدها على ذلك نجاحها فى التصدى لهذا الغزو فى جزيرة أم الرصاص وإبادته تماما !

دخلت صفاء ومعها الجدة وطارق وسلمى بأطباق الطعام والخبز والسلطة التى وضعت على المائدة الصغيرة ، وصفاء تقول :

ـــ لم نشأ أن نزعجكما بالانتقال إلى غرفة الطعام فليس هناك من الطعام ما يستحق الانتقال إليها !!

ابتسم خالد فهو أدرى بكرم أخته :

ـــ الأطباق كثيرة والخير وفير !! هذا ليس طعام أمة تخوض معركة المصير ! كم أوحشنى الطعام العراقى ؟!

أردف سعدون وهو يغمس الخبز فى السلطة :

ـــ اهتمام الرئيس صدام بالجبهة المدنية لا يقل أبدًا عن حرصه على الجبهة الحربية . فهى ليست حرب أيام أو شهور !! فنحن نعيش عامها الثامن !!

قالت صفاء لأخيها :

ـــ ليس هناك فرق كبير بين الطعام العراقى والطعام المصرى!

على غير عادته فى الفترة الأخيرة ، سال لعاب خالد للطعام وأقبل عليه بشهية مفتوحة مما أثلج صدر الأسرة التى تبادلت الأحاديث الحميمة حول الحرب والحقد الإيرانى ، والأخوة العملية التى تجلت فى

الجبهات العسكرية بين مصر والعراق ، واحتمالات السلام ، وموقف الرأى العام العالمى منها ، وشوق سعدون وصفاء وطارق وسلمى لزيارة مصر بمجرد انتهاء الحرب . وكانت سعادة خالد بطارق وسلمى لا توصف وهما يساهمان فى الحديث الدائر بمنتهى النضج والأفق الواسع . ولم يملك سوى أن يعلق :

ـــ لقد نضج الجميع على نار الحرب ! حتى الأطفال !!

لكن طارقا احتج فى عذوبة على قول خاله :

ـــ نحن لسنا بأطفال ! فلم يعد هناك وقت أو مكان لبراءة الطفولة !!

وضحك الجميع على التعليق الذكى اللماح وهم يتناولون الخشاف المثلج . كان خالد يود أن يواصل الحديث بكل شجونه وتداعياته لكن أخته التى عرف عنها النظام والدقة والحسم دائما أصدرت الأمر بالنوم المبكر نظرا للاستيقاظ المبكر فى صباح اليوم التالى لتسليم نفسه لوزارة الدفاع ضمن الضباط المصريين الذين قدموا معه فى مهمته القومية .

لكن النعاس لم يهبط عليه عندما آوى إلى غرفته المكيفة الهواء . كان مجهدا لدرجة الإنهاك ومع ذلك لم يهرب من تكالب الأفكار والمشاعر والخواطر بل والمخاوف على ذهنه المكدود فى سكون بغداد الليلى . هذا السكون الذى يمكن أن يمزقه صاروخ فارسى غادر ليغوص فى فلذة من فلذات كبد العراق على حد قول سعدون .

فجأة أنار ظلام الغرفة وجه ليلى الناصع البياض ، المشرب بالحمرة عند الوجنتين ، بعينيه الواسعتين السوداوين كآبار الأساطير ، وشعرها الناعم الفاحم اللامع المتدفق على كتفيها كأمواج الفيضان ، وأنفها

المشرئب إلى أعلى فى شموخ محبب وقوامها الملفوف الممتلىء المتدفق حيوية . وكاد خالد أن يسمع لهجتها العراقية المتفجرة بحماسها لقضايا الأمة العربية ، وعشقها للثقافة والفكر والتاريخ ، وأن يلمح بريق عينيها الذى يومض بقوة شخصيتها !

لم ير خالد صورتها من قبل بهذا الوضوح والتفصيل برغم مرور ما يقرب من عشرين عاما على الفراق بينهما . هل ومضت الصورة الآن لأنه يعيش على أرض وطنها وربما كان أقرب إليها أكثر مما يظن ؟! لماذا ظلت تلح على وجدانه طوال السنوات الماضية برغم أنه لم يكن بينهما حب بالمعنى التقليدى ؟ أم أنها ظلت تلح بسببه ؟! لابد أن يعترف أنها رحلت وقد تركت شيئا فى نفسه ! ما هو ؟! لا يدرى على وجه التحديد ! ربما كان ذكرى عطرة ، أو تجربة مشبعة ، أو لقاء روحى لا يتأثر بالمادة أو الزمن ، أو اتحاد فكرى مثلما يحدث بين التوائم ! ربما كان هذا كله أو بعضه ، ومع ذلك لا يزال عاجزا عن إدراكه على وجه اليقين ! لكنه إحساس ممتع مجدد للروح والعقل ، لا يريد أن ينضب له معين !

تسلل النعاس إلى جفونه ومعه أطياف ليلى التى حلم بها وهى تستقبله عند باب الطائرة وهو يهبط منها إلى أرض بغداد . كانت ملامحها منشرحة كالعادة وإن بدا عليها الإجهاد والإنهاك . لم تندهش لرؤيته وكأنها كانت معه بالأمس ، وسارت إلى جواره متشبثة بيده وهو يدفع أمامه العربة التى تحمل حقيبته الكبيرة . لم يدر بينهما حديث إذ أن لغة العيون تفجرت بمشاعر لم تتوهج فى وجدان بشر من قبل ! رآها فى قاعة التشريح بقصر

العينى وهى تلتهم كلماته التى يلقيها على طلبته أيام كان معيداً ! قابلها فى بوفيه الكلية وهى ترشف كوبا من الشاى وتصب حمم غضبها على رأس عبد الكريم قاسم الديكتاتور المجنون الذى انحرف بمسيرة ثورة العراق إلى طرق مسدودة ومتاهات جانبية ! لمحها فى ملعب الكلية بملابس التنس وهى تضرب الكرة التى انطلقت كقذيفة من فوهة مدفع ! ظلت ملازمة له فى رحلة الكلية إلى أهرامات الجيزة وأبى الهول وسقارة ودهشور ، مبدية ذهولها لإعجاز المصريين القدماء ، وشوقها الملتهب لآثار بابل وكربلاء وبغداد ! ذكرها أبو الهول بأسد بابل بتمثاله النحاسى الكامن وراء بقايا أسوار قصر نبوخذ نصر ، فهفت روحها إليه !

سرى ضوء الفجر من خصاص النافذة وجفون خالد لا تزال مطبقة على ليلى ، وأسماعه لا تزال مرهفة لهمساتها التى امتزجت بصوت أبواق السيارات فى الشوارع المجاورة ، وهدير طائرة عملاقة هابطة فى طريقها إلى أحضان بغداد .

(٣)

تهادت الطائرة العسكرية الداكنة اللون فوق طبقات السحب الشفافة تحت وهج الظهيرة وهى تشق عبابها فى طريقها إلى البصرة . كمن خالد بيزته العسكرية فى مقعده وقد تناثر حوله زملاؤه المصريون الذين شكلوا مجموعة نادرة من مختلف أسلحة القوات المسلحة . كان فيهم الطبيب ، والمهندس ، وخبير الصواريخ والمدفعية ، وخبير الطيران ، والدبابات ، والألغام ، وقنابل الأعماق .

تبادل بعضهم التعليقات والتعقيبات ، لكن معظمهم لاذ بالصمت المشحون بخواطره الشخصية التى امتزجت بأزيز محرك الطائرة الرتيب . كان خالد مشغولا باجترار أحلام الأمس ولقاءاته فى الصباح فى وزارة الدفاع التى لم يخطر بباله أن يلتقى فيها بالأحضان مع زملائه العراقيين الذين شاركوه حرب أكتوبر ، منهم أخصائى عظام وآخر أخصائى حروق . وذهل لروح المرح السائدة بينهم برغم الحرب الضروس التى يخوضونها لدرجة أن أحدهم داعبه قائلا :

ــ ظروف الوطن العربى لم تعد تسمح لنا باللقاء الا فى جبهات المعارك !

ربت خالد على كتفه فى حب دافق :

ــ سنلتقى بإذن الله فى أفراح النصر !

وخرج خالد من دفء اللقاءات الحميمة إلى السيارة الجيب التى أقلته إلى المطار الحربى حيث كانت الطائرة العسكرية الداكنة اللون قابعة على أرضه كأسد بابل . وسرعان ما انطلقت لتشق طريقها وسط السحب صوب البصرة التى لن يستغرق الوصول إليها أكثر من ساعة . تأمل خالد الكون خارج النافذة الصغيرة ليرى كل شيء هادئا للغاية وكأنها بقعة لم تعد ملتهبة بنيران المدفعية والصواريخ وقاذفات القنابل !! هل يمكن أن يخرج صاروخ من بطن المجهول ليصيب الطائرة فى مقتل ؟! إنه خاطر كفيل بأن يبث الرعب فى قلب كل من يمر بوجدانه ، لكن يبدو أن الموت يفقد كثيرا من هيبته المرعبة فوق أرض البطولة والشهادة والفداء ! ولذلك يبدو كل شيء خارج الطائرة هادئا متطامنا وكأن الطائرة ليست فى طريقها إلى أبواب الجحيم !

أعلن القائد فى مكبر الصوت اقتراب الطائرة من مدينة البصرة راجيا الركاب ربط الأحزمة والامتناع عن التدخين . تهادت الطائرة فى هبوطها وتقاطيع بعض أجزاء البصرة تبدو وتتضح وقد تحولت إلى ثكنات عسكرية وخنادق ومتاريس وكائن وأسوار من أكياس الرمل ، بل هناك فجوات غائرة كفوهات البراكين فى بعض الطرقات والمبانى نتيجة للقصف المدفعى المسعور ، وأشجار نخيل سامقة ، احترق معظمها وتلاشى سعفها الأخضر ومع ذلك واصلت الصمود والشموخ . حتى النخيل الجميل الوديع المتمايل بسعفه اللعوب مع هبات النسيم لم يسلم من نار الحقد الفارسى !

استدارت الطائرة لتتضح معالم المطار الحربى والممر الذى امتد تحت

عجلاتها لتقترب منه ثم تمسه مس الحرير وهى تلهث عليه وتمسك من سرعتها حتى بلغت المنحنى الذى يؤدى إلى ساحته لتتوقف ويسرع العمال بوضع السلم أمام الباب القريب من مقعد خالد فتتدفق ريح تلسع بلفحاتها الوجوه والأيدى بسعير لم يدر خالد إذا كان سعير الجو أم سعير الحرب ؟! هبط خالد ومعه زملاؤه ، لكن بمجرد أن وضعوا أقدامهم على أرض المطار ، إذا بها تزلزل زلزالها مع نعيق صفارات الإنذار التى دوت لتخترق الآذان ، وانطلاق رجال الدفاع المدنى كالقاذفات لاقتياد الضباط المصريين إلى مكامن خلف متاريس أو خنادق غارقة وسط أكياس الرمل .

انبطح خالد على وجهه ودوى طلقات المدفعية يكاد يمزق غشاء أذنيه ، والأرض من حوله نافورات من الرمال والأتربة وألسنة اللهب ودوى الصواعق ! لم يمنح الانتقال المفاجىء إلى قلب المعركة الهادر الملتهب خالدا فرصة كى يخاف ! ظل رابط الجأش فى انتظار الغمة التى ذكرته بلحظات عصيبية فى حصار الجيش الثانى حول عيون موسى فى حرب أكتوبر . عجيب أمر هذه الأمة العربية !! لم تعرف طريق العدوان واغتصاب حقوق الآخرين ، ومع ذلك كتب عليها أن تصد العدوان وأن تدافع عن حقوقها التى يصر الحاقدون على اغتصابها جهارًا نهارًا !! الجبهات التى تفتح لها لا نهاية لها : إسرائيل ، الصحراء المغربية ، جنوب السودان ، لبنان ، إيران !!

تعجب خالد كيف علا صوت الخواطر والتأملات على دوى القذائف والقنابل ؟ مرت صورة دعاء وأيمن كالبرق فى وجدانه فدعا الله

أن يحفظه من أجلهما ! وضع كفيه على أذنيه ليحميهما من دقات الهدير الخارق ومن تلقى زئير المدفعية الإيرانية على الضفة المقابلة من الخليج !

فجأة ساد سكون شديد الوطأة وكأن الدنيا خلت من البشر والأشياء ! التفت خالد إلى يمينه وهو لايزال منبطحا فوجد زميلا عراقيا يقول له مبتسما وقد نهض ليتكىء على مرفقه :

ـــ أرأيت الاستقبال الحافل الذى أعده لكم الفرس ؟!

ابتسم خالد وكأنه صديق حميم له منذ زمن بعيد :

ـــ الحمد لله أن مراسم الاستقبال بدأت بعد هبوطنا من الطائرة !!

ثم دوى انفجار خيم على الآذان بالصمم ! كانت هناك طائرة عند الطرف الشرقى للمطار وقد أمسكت النيران بتلابيبها لتنفجر بلهيب كاد يلفح وجه خالد ورفاقه الذين بدءوا فى استيعاب الدوى المتتابع للقصف ، فتراجعت الارتعاشة التى أصابتهم لأول مرة وتذكروا أيام حرب أكتوبر عندما كان بعضهم ينام برغم دوى الانفجار حوله !!

لم يعرف خالد كم من الوقت مر ، لكن ترقبه انتهى بصوت صفارة الأمان . نهض الجميع من مكامنهم ، وكذلك الذين أصيبوا منهم ببعض الشظايا أو بضغوط تفريغ الهواء ، وسرعان ما تجمعت بعض سيارات الجيب التى توقفت فى طابور ليستقلها الضباط لتنطلق إلى أعماق البصرة عند أبعد موقع من الخليج . كانت رائحة الحرائق الحمراء والدخان الأسود تزكم الأنوف وتخنق الصدور التى فرجت عن نفسها بنفثات من السعال الحاد .

انطلقت السيارة التى استقلها خالد على طريق تزاحمت أشجار النخيل على جانبيه . كان بعضها يحترق وكأنه يئن مع أزيز النيران التى ترعى فيه كرعى الذئاب للحملان فى حين أرسلت الشمس لظاها حتى أوشك الأسفلت أن يسيل فى لزوجة تشبثت باطارات السيارة . كان السائق متجهما ولم يتبادل كلمة واحدة مع خالد . كانت السيارة كالسهم المنطلق إلى هدفه الذى بلغته عند أسوار مدرسة ابتدائية صغيرة تحولت إلى مستشفى ميدان . أبرز السائق أوراقه عند البوابة ليسمح للسيارة بالدخول حتى باب المبنى .

أسرع بعض الأطباء بمعاطفهم البيضاء لاستقبال الجراح الذى سبقته شهرته إليهم ولأخذه بالأحضان وكأنه شقيق أو أب أو ابن عاد إلى أسرته بعد طول غياب ! وبرغم دموع خالد الشحيحة مع من يعرفهم بالفعل ، وجدها هذه المرة تفيض على وجنتيه وعنقه . وبعد انتهاء العناق وكلمات الترحيب الهامسة والمبحوحة ، فوجىء بثلاث طبيبات وقفن للترحيب به وكانت مفاجئة لها دوى أعنف من قصف المدافع الفارسية ! مد يده بالسلام الحار على يد الأولى والثانية ، أما الثالثة فأمسك يدها بكلتا يديه وقد استحالت سخونة العرق المتدفق داخل حلته العسكرية إلى قطرات من الثلج فى حين انهمرت دموعه كطوفان لا يتوقف وسط دهشة الواقفين بل وذهولهم !!

كانت هى برغم تكذيبه لعينيه ويديه ! كانت هى بعينيها السوداوين الواسعتين ، وشعرها الأسود الفاحم اللامع الناعم وإن تسللته شعيرات بيضاء زادتها وقارا على جمال ، ووجهها الأبيض وإن سرى فيه بعض

الشحوب الذى طارد الحمرة التى اشتهرت بها وجنتاها ، وقوامها الملفوف الرشيق فى المعطف الأبيض وإن هزل بعض الشىء ، وأنفها المشرئب إلى أعلى وهى تلتقط كلماته المبحوحة :

ــ غير معقول !!

ــ لا أكاد أصدق نفسى !

ــ بعد عشرين عاما ؟!

ــ وفى ظروف كهذه ؟!

ــ ولا فى الأحلام !!

ثم تنبها للواقفين حولهما فى ذهول وعيونهم فى شوق لتفسير ما يدور ، فتركت ليلى يديه قائلة وهى تمسح بمنديلها الأبيض الصغير :

ــ الدكتور خالد كان أستاذى فى كلية طب قصر العينى بالقاهرة قبل أن ينتقل للعمل بالقوات المسلحة !!

ابتسم خالد فى حرج وتواضع بالغين :

ــ لم أكن فى ذلك الوقت سوى مجرد معيد بالكلية !

ربت كبير الأطباء على ظهر خالد فى حنو أبوى :

ــ لقاء الأشقاء فى الأسرة الواحدة ليس من الأمور المستحيلة أو غير المعقولة .. ونحن أسرة واحدة من الخليج إلى المحيط !

ثم أشار بذراعه صوب الباب :

ــ لن نظل واقفين هكذا .. فلا شك أن الدكتور خالد فى أشد الحاجة إلى الراحة !

أضافت ليلى :

ــ كانت الغارة المدمرة فى انتظاره !

علق كبير الأطباء وهو يقودهم إلى الداخل :

ــ ونحن الآن فى انتظار المصابين القادمين فى أعقاب الغارة !!

دلفوا إلى داخل الاستراحة الواقعة على يمين المدخل ليجلس خالد بين ليلى والدكتور عدى كبير الأطباء فى حين انطلق الأطباء والطبيبات إلى عملهم . ضغط الدكتور عدى على زر جرس فحضرت ممرضة :

ــ شاى بسرعة للدكتور خالد .

اختفت الممرضة ليقول لخالد :

ــ طبعا .. أنت فى حاجة إلى راحة ! ستأخذ اليوم عطلة وتبدأ العمل غدًا !

ــ راحتى فى العمل ! أنا معكم فى انتظار المصابين القادمين سواء من الجبهة أو الغارة .كيف يغمض لى جفن وأنتم ساهرون فى غرف العمليات ؟!

ــ أنا لا أميل لقيام الجراح بعمله وهو مجهد !

تذكر خالد يوم عجز عن إتمام العملية وتركها لمساعده نتيجة لسهره وإجهاده ، ومع ذلك شعر بإرادة حديدية تجتاح كيانه بحيوية ويقظة لم يدر لهما سببا واضحا سوى أن ليلى بجواره بعد غياب عشرين عاما :

ــ الإجهاد ليس فى خطورة الحالة النفسية الهابطة والشرود الذهنى وأنا أشعر أن روحى المعنوية تصل إلى عنان السماء !

دخلت الممرضة لتضع أمامه الشاى وتخرج . لمح خالد خاتم الزواج فى أصبع ليلى ، لكن نشوته بوجودها لم تتراجع إذ أن وجودها إلى جواره هو غاية المنى التى لم يكن يجرؤ على أن يتخيلها أو يحلم بها . قال الدكتور عدى :

ــ بارك الله فيك ! المهم .. لا تتحرج أو تخجل من أن تستريح عند أول بادرة للإجهاد أو عدم القدرة على التركيز!!

ــ لا يمكن أن أخجل من إخوتى!

أشارت ليلى بصوتها العذب الذى لم يتغير إذ أن أصداءه ظلت تتردد بين جنبات وجدانه أكثر من عشرين عاما :

ــ تفضل الشاى يا دكتور خالد قبل أن يبرد !

ضحك الدكتور عدى :

ــ كل شىء ساخن ومشتعل حولنا .. فهل يشذ الشاى عن القاعدة !!

ران صمت لم يقطعه سوى رشفات خالد للشاى ! كانت الساعة تقترب من الرابعة بعد تسلل ضجيج محركات بعض السيارات القادمة مع صوت بعض الأبواق المتقطعة . نهض الدكتور عدى :

ــ يبدو أننا سنقوم بعمليات كثيرة هذه الليلة .

نهض خالد بدوره ومعه ليلى التى سألته :

ــ ألم تتناول غداءك بعد ؟! لا يمكن أن تعمل وأنت جائع ؟

قال فى جدية بالغة :

ــ تناولت ما يكفى فى الطائرة ! هيا إلى العمل !

احتضنه الدكتور عدى بعينيه وهو يقوده إلى غرفة تغيير الملابس والإعداد للعمليات حيث ارتدى الزى الأبيض ثم انطلق إلى قسم الأشعة ليختار العملية التى سيبدأ بها . كان هناك معظم أطباء المستشفى يفحصون صور الأشعة ومن بينهم ليلى التى أسرعت إليه بعدة صور لمصاب بنزيف داخلى نتيجة لشظايا أصابت الرئة اليمنى والمعدة . قالت ليلى باسمة :

ـــ أعرف أن الدكتور خالد لا يرضى إلا بالعمليات الصعبة المعقدة !

تفحص الصور بدوره وهو يعلق بنفس الابتسامة :

ـــ لا زلت تذكرين كلام الشباب المبكر وغروره !

ـــ أعتقد أن الخبرة الطويلة والعميقة قد حلت محل الغرور !

ـــ أنا على استعداد للقيام بأية عملية تطلب منى بشرط ...

قاطعته وكأنها تقرأ أفكاره :

ـــ لا تكمل ! سأكون معك فى كل عملية تقوم بها حتى أتعلم المزيد !

ضحك وهو يشير بذراعه صوب الباب

ـــ كفاك تواضعا .. تفضلى أمامى إلى غرفة العمليات !

وفى غرفة العمليات كان الاستعداد على قدم وساق . كل شىء أبيض ، معقم ، نظيف ، لامع برغم الغرفة الصغيرة التى تبدو أنها كانت حجرة المدرسين فى وقت السلم الذى يفتقده الجميع بحرقة ! ارتدى الجميع الأقنعة المعقمة فى حين رصت الأدوات الجراحية اللامعة داخل صندوق زجاجى معقم وانهمك طبيب التخدير فى مهمته التى انتهى

منها . كان السكون الأبيض فى ضوء المصباح الساقط بالقرب من المصاب يوحى بالرهبة التى لم تقطعها سوى أصوات تناول الأدوات الجراحية .

وقفت ليلى إلى جوار خالد وعيناها السوداوان الواسعتان تبرقان بوميض حبيب فوق القناع . شعر خالد بأنه فى قمة لياقته البدنية والذهنية والحرفية فبدا كابسترو يقود الفريق بإشارات صامتة من أصابعه الماهرة التى التقطت الشظايا كما يلتقط المغناطيس الدبابيس فى ليلة معتمة . انقطع التيار الكهربى للحظات سرعان ما عاد النور بعدها من الدينامو الخاص بالمستشفى . هبط الظلام متسربلا بالسكون ، والجراحة جارية على قدم وساق مع قدوم المساء وتوغله صوب الليل .

دقت الساعة فى الغرفة الثامنة مساء . لم يبد الإنهاك على وجه خالد أو أصابعه فى وقفته الشامخة ونظراته المتنقلة بين جهاز التنفس وباطن المريض المفتوح وعينى ليلى اللتين يستمد منهما قوة أسطورية يمكن أن يدك بها الجبال .

كان فى إمكانه أن يواصل الليل بالنهار فى إنقاذ المصابين . يكفيه يد ليلى الحانية التى تمتد من حين لآخر بمنديل ورق لتمسح العرق المتصبب على جبينه ! إنه واجب الممرضة أو الحكيمة على أكثر تقدير ، لكن ليلى آثارت القيام به منذ الوهلة الأولى وكأنها تدرك أنه مس السحر ! كان أزيز جهاز التكييف أعلى بمراحل من درجة تلطيفه لسخونة الغرفة خاصة عندما بدأ الدينامو عمله . كانت خطوط العرق تسرى داخل ملابس خالد

المعقمة ، وهو إحساس قديم كثيرا ما أثار أعصابه إذا لم يستجم فى التو واللحظة ، لكنه الآن فوق كل هذه الأحاسيس الساذجة . فما يمر به الآن حقيقة وواقع أروع من ألف حلم وخيال !

انتهت العملية على ما يرام بعد أربع ساعات وربع ، وبدأ تأثير المخدر فى التراجع فأمر خالد بنقل المصاب إلى غرفة العناية المركزة وسط عيون فريقه الطبى الناضحة بالإعجاب المتدفق بمهارته البالغة التى لم تؤثر فيها ظروف القتال والغارات والانفجارات والإنهاك الجسدى والعصبى ! بلغ الإعجاب به قمته وهو يقول لليلى :

ـــ فلنستعد للحالة التالية .. فنحن فى سباق مع الزمن والموت !!

كانت ليلى على وشك أن تنصحه بالراحة ولو لفترة بسيطة ، لكن نبرة الإصرار فى كلماته ومعناها العظيم جعلها تشير بيدها للحكيمة والممرضة بتنفيذ الأمر .

وبعد نصف ساعة بدأت العملية الأخرى ولكن وسط دوى المدافع وانفجار القنابل وسقوط الصواريخ الذى هز أركان الغرفة الصغيرة . وبرغم أكياس الرمل العالية المحيطة بالمستشفى ، فإن زجاج النوافذ السميك كان يرتعش كصفحات من الورق الخفيف فى مهب إعصار ، ومع ذلك استمر فى المقاومة و لم يتحول إلى شظايا . وخارج خصاص النوافذ ومض برق غريب يميل إلى الاحمرار النحاسى ، ومع كل ومضة برق كان الدوى الصاعق للآذان ! ومع ذلك لم ترتعش أصابع خالد وليلى الغائصة بالدماء فى باطن المريض . بل كانت كل اهتزازة مدوية تزيد من روح التحدى والصمود عندهما برغم أنه سمعها تتمتم فى ضراعة :

ــ فليحفظك الله يا عدنان من كل سوء !!

فأدرك فى الحال أنه اسم زوجها الذى لم يكن قد سألها عنه فى خضم اللحظات الصاخبة اللاهثة التى لم تترك له دقيقة واحدة كى يتأمل ما يجرى !!

سألها دون أن ينظر إليها :

ــ هل الغارات مستمرة هكذا دون انقطاع ؟!

فأجابته وهى تمسح عرق جبينه بحباته المتألقة فى ضوء المصباح المسلط على باطن المريض :

ــ اليوم أفضل بكثير من أيام كثيرة مضت استمرت فيها الغارات لتصل الليل بالنهار !!

أضاف طبيب التخدير :

ــ خاصة فى تلك الأيام التى تصور فيها الفرس أن البصرة أصبحت تفاحة على وشك السقوط بين أنيابهم !!

ابتسم خالد وهو يتمتم تحت قناعه :

ــ ونحن أيضا سنواصل الليل بالنهار حتى نعالج كل المصابين !

وانتهت العملية فى الساعة العاشرة والنصف وقد أصبح دوى الانفجارات البعيدة والقريبة فى أذنى خالد إيقاعا رتيبا لا يثير ما أثاره عند البداية . صاح فى زملائه وهو يخلع قناعه :

ــ فلنستعد للعملية التالية !

عندئذ لم تستطع ليلى أن تمنع نفسها من الاحتجاج فصاحت :

ــ لابد لك من فترة راحة !!

غطت وجهه الأسمر الابتسامة التى طالما عشقتها :

— يمكننا الحصول على فسحة من الوقت بعد العملية القادمة !!

وبدأت العملية وسط دوى الانفجارات وإن كان قد ضعف وتباعد بعض الشيء . كانت روح التحدى السارية فى عروق القائمين على العملية تفعل فعل السحر . أما خالد فشعر أنه بلغ قمة الأداء التى ليس بعدها قمة أخرى ! كان كالعازف العبقرى الذى يكاد يمس الوتر المطلوب وبالدقة والخفة المطلوبين دون أن ينظر إليه ، ومعه كانت أصابع ليلى تعزف بنفس المهارة ، فأدرك أن بوتقة الحرب التى انصهر فيها هذا الشعب الرائع قد خرجت على العالم أجمع بجوهره الأصيل الثمين الذى يخلب الأبصار ببريقه الحاد الذى يطغى على وميض الانفجارات وبرق الصواريخ !

انتهت العملية ليغسل خالد يديه ويرفع قناعه قائلا لفريقه :

— أمامكم فسحة يمكن أن تصل إلى ساعتين !! بعدها العملية التالية !

دفع الممرض النقالة ليخرج بالمريض وفى أعقابه خالد الذى استمع إلى كلمات ليلى الملهوفة :

— لابد أن تأكل شيئا وتغفو ولو للحظات !

— إذا غفوت فأنا أدرى بنفسى .. لن أنهض قبل أربع وعشرين ساعة .. وإذا نهضت قبلها فلن أكون فى كامل لياقتى .. الأفضل أن أتناول شيئا من الطعام مع كوب من الشاى !! أما أنت فيمكنك النوم حتى وقت العملية القادمة !

ــ وهل يصح أن ينام صاحب البيت فى حين يظل الضيف ساهرا ؟!

ابتسم وهو يدخل من باب الاستراحة وهى فى أعقابه :

ــ لم أتوقع مثل هذه الإهانة منك !

ابتسمت بدورها وهى تجلس على مقعد قريب من الأريكة التى استرخى عليها :

ــ أعرف أنك صاحب بيت أيضا ! لكنك لم تصل سوى اليوم !!

لم يدر بنفسه إلا وهو يقول :

ــ وصلت اليوم بجسدى فقط !! أما روحى وعقلى فكانا هنا معظم الوقت !

نهضت فجأة فى بعض من الحرج وهى تتمتم :

ــ سأطلب طعاما وإبريق شاى !

وأسرعت خارجة فى حين كان يمكنها إحضار ما تريده بالجرس ! أدرك أنه ربما يكون قد جرحها دون أن يدرى فندم على كلماته ، وفكر فى اللحاق بها لكنه تماسك وهو يتأمل الغرفة ذات الأثاث المتواضع النظيف ، وصورة الرئيس صدام حسين المعلقة على الجدار أمامه وقد شع من عينيه بريق الثقة والإرادة والإصرار والصمود حتى النصر ، وتألقت على شفتيه ابتسامة حانية ترنو إلى مستقبل مشرق برغم ليالى الظلمة التى تعيشها هذه المدينة الباسلة. إنها إرادة الأمة عندما تتجسد فى أحرج لحظات المصير فى شخص بطل يحمل على كتفيه أمانة المستقبل كله ، ويخوض بها وسط أهوال كفيلة بدك الجبال طوال ثمانى سنوات ، لكن الربان الماهر يعرف كيف يوجه دفة السفينة فى خضم الأمواج العاتية

والأعاصير المسعورة صوب بر الأمان مهما بدا بعيداً! وما فعله الشعب العربى فى العراق يجسد ابتسامة الثقة وأمل النصر فى صورة الرئيس صدام حسين .

خرج خالد من تأملاته وخواطره على دخول ليلى وهى تحمل بنفسها صينية عليها بعض البيض المسلوق وسندويتشات اللحم وإبريق شاى وكوبان . انتفض خالد واقفا يمسك بالصينية ويضعها معها على المائدة الصغيرة أمامه . جلست أمامه لتقشر له بيضة وتقدمها إليه فأخذها وهو يداعبها مبتسما :

— لا زلت تعاملينني كضيف !

ضحكت برغم هدير الطلقات المتبادلة فى وابل كالمطر خارج أسوار المكان :

— وهل من واجبات صاحب البيت تقشير البيض المسلوق ؟!

قضم خالد نصف البيضة ضاحكا :

— أتعلمين ما يشغل بالى الآن ؟!

أشاحت بوجهها بعيدا فأدرك أنها أساءت فهم سؤاله ! بادر بقوله :

— لم أعد خائفا من أن ينهار المستشفى على رءوسنا نتيجة لصاروخ أو قنبلة .. لكن ما يقلقنى حقا أن يضيع المجهود الذى بذلناه والذى سنبذله هدراً!! خاصة وأنها كلها عمليات ناجحة والحمد لله !

عادت الابتسامة الساحرة لتفرش وجهها وتذكره بالأيام الخوالى :

— لن يصيب المستشفى إلا صاروخ مباشر إلى قلبه .. إذ أنه محاط

بتلال رملية وصخرية من ثلاثة جوانب ، والجانب الرابع تحميه كتيبة من أشجار النخيل الصامدة برغم كل الحرائق التى التهمت أطرافها وفشلت فى بلوغ قلبها !

شاركته الطعام وهى تصب الشاى فى الكوب أمامه ، والسكون يهبط على المكان فإذا به يعلق ضاحكا :

ــ يبدو أننى سأدمن صوت الانفجارات ودوى القنابل لدرجة الخوف من الصمت والسكون !!

لمح بريق عينيها وكأنها تحاول تفسير كلماته الأخيرة :

ــ منح الله الإنسان القدرة على أن يعتاد أى شىء !!

ــ وكيف حال عدنان ؟!

مر السؤال بجوار أذنها فاهتزت أعماقها برغم اعتيادها على مروق الطلقات والصواريخ :

ــ وكيف عرفت اسمه ؟!

ــ سمعتك تتمتمين به فى أثناء العملية !

ــ إنه يقود جنوده الآن فى الجبهة الأمامية دفاعا عن مداخل البصرة !

ــ أعاده الله إليك سالما غانما !!

ــ آمين !!

ــ كنت أعلم أنك تعيشين فى بغداد !! فهل أنت بغدادية أم بصرية ؟!

ــ لا تنس أن لقب أسرتنا هو « البصرى »! بل ويقال إن الجد الأكبر لأسرتنا هو حسن البصرى شخصيا ! كما أننى من مواليد البصرة !!

ضحك خالد وهو يرشف الشاى :

ـــ لى صديق مصرى يدعى حسن بغدادى لم ير بغداد فى حياته !!

ـــ لكن لابد أن جذوره الأولى تنحدر من بغداد .. فموجات الترحال والهجرة لم تتوقف بطول الوطن العربى وعرضه إلا مع كابوس الاستعمار البريطانى والفرنسى . وتمزيق جسد الأمة العربية بالحواجز المصطنعة !!

آه ! كم أوحشته مناقشتها المثيرة الشهية . قال :

ـــ« والمغربى » هو لقب أسرة أمى برغم أن أحدا من أفرادها لم ير المغرب العربى على الإطلاق !

ـــ هذه ليست جنسيات بقدر ما هى تنويعات على لحن العروبة !

ـــ ماذا فعلت فى العشرين سنة الأخيرة ؟! أرسلت إليك ثلاثة أو أربعة خطابات بعد توقفك عن المراسلة .. ومع ذلك واصلت المقاطعة التى كان يمكن أن تستمر إلى الأبد لولا هذا اللقاء القدرى الذى وقع بيننا اليوم ؟!

لم تكن رنة العتاب خافية على أذنى ليلى التى قالت فيما يشبه الاعتذار :

ـــ أنت أدرى بشخصية سهام !! لم يكن هناك داع أن أسمم حياتك الزوجية لمجرد خطابات متبادلة بيننا لا تحمل سوى أخبارنا ومحاولة الاطمئنان على أحوالنا !! فمن حق كل إنسان أن ينظر إلى الأمور من الزاوية التى يفضلها .. مهما اختلفت مع زوايا الآخرين .. نحن فى النهاية لن نغير الكون !!

كان أدرى بمنطقها المتماسك وحجتها القوية فقال وهو يواصل رشف

الشاى :

ـــ عموما .. أستطيع الآن أن أعرف أخبارك وأطمئن على أحوالك !

استرخت فى مقعدها وقد ضمت ذراعيها على صدرها :

ـــ بعد عودتى إلى بغداد أكملت دراسة الطب وتخرجت فى جامعة بغداد بتفوق أهلنى أن أعمل معيدة بالجامعة .. ثم سافرت فى بعثة إلى بريطانيا وحصلت على الماجستير وعدت لأواصل التدريس بالجامعة .. ثم رشحت لبعثة للحصول على الدكتوراه .. لكن الحرب كانت قد بدأت فأدركت أن الدكتوراه رفاهية يمكن الاستغناء عنها فى الوقت الراهن .. كان الوطن فى حاجة إلى جهدنا العملى ! قبل المؤهلات العملية العالية !

صمتت لتلتقط أنفاسها فسألها وهو ينهى كوب الشاى :

ـــ يبدو أنك شاركت فى الحرب منذ بدايتها؟!

ـــ عملت فى المستشفى العسكرى ببغداد فى البداية ومع اشتداد المعارك طلبت الانتقال إلى البصرة !

ـــ فى هذاالمستشفى!

ـــ لا .. فى مستشفى متقدم قرب الخطوط الأمامية .. دمر تقريبا عن آخره ونجوت منه بأعجوبة !! لأعمل بعد ذلك فى هذا المستشفى !

ـــ كيف نجوت ؟! وكيف كانت حال عدنان ؟!

ـــ قد تتعجب إذا عرفت أن زواجنا تم فى أثناء الحرب .. وحملت فى زهير فذهبت إلى بغداد للوضع .. وفى نفس ميلاده .. للأسف .. دمر المستشفى واستشهد فيه معظم الزملاء !

طغت رنة الحزن والأسى على نبراتها فأراد أن يغير مجرى الحديث بتساؤل باسم :

ــ لكن كيف قابلت عدنان وتم الزواج بينكما ؟! لابد أنها قصة حب رومانسية ملتهبة فى وهج الانفجارات ووسط دوى القنابل !

عادت بشائر ابتسامتها لتفترش عينيها وشفتيها :

ــ لم تكن رومانسية على الإطلاق !! كانت فى منتهى الواقعية!

ــ كفاك تشويقا!!

ــ عرفته لأول مرة عندما نقل إلى المستشفى الميدانى الذى كنت أعمل فيه قبل تدميره .. كان جريحا مصابا بطلقتين وعدة شظايا .. قمت باستخراجها فى عملية طويلة مضنية .. وظللت إلى جواره أرعاه حتى التأمت جروحه برغم أنه لم يكن مستريحا لوجودى !

لم يمنع خالد نفسه من الدهشة الطافحة على وجهه :

ــ كيف ؟!

ــ لم يكن من نمط الرجال الذين يؤمنون بمشاركة المرأة للرجل فى العمل !! خاصة إذا كان عملا خطيرا مصيريا مثل الحرب !! بل و لم يخجل من إظهار نفوره وعدم ثقته فى رعايتى له لدرجة أنه طلب من كبير الجراحين ..الذى استشهد فى الغارة التى دمرت المستشفى .. طلب استبدالى بطبيب رجل يمكن أن يطمئن إليه !!

ــ وما الذى جعله يفكر بهذا الأسلوب؟! هل مر بتجربة سيئة مع فتاة قبلك ؟!

ــ لم تكن فى حياته فتيات قبلى .. إذ استهلكت الحياة العسكرية كل

وقته ..لكنه تربى فى بيت يؤمن أن المكان الوحيد للمرأة فى هذا العالم هو البيت .. أما أن تعمل المرأة فى ميدان القتال فهذا هو الجنون بعينه !

لم يملك خالد من أن يضحك مداعبا :

ــ لابد أنه كان فاقد الوعى عندما وصل إلى المستشفى من الجبهة .. وإلا لما وافق على مباشرتك له منذ البداية ؟!

ضحكت بدورها ضحكة ذكرته بالأيام الخوالى :

ــ فعلا .. وبعد انتهاء العملية وعودته إلى وعيه لم يتقبل الأمر أبداً برغم تأكيد كبير الجراحين له بأنى من أكفأ الجراحين فى المستشفى !!

ــ وهل ظل على موقفه وعناده ؟!

ــ لو ظل لما تزوجنا .. لكنه رضخ على مضض .. ثم أثبتت له الأيام التى أمضاها فى المستشفى أننى لا أقل عن أى طبيب رجل فى الكفاءة إن لم أزد عليه فى الدقة والصبر بل وتحملى لطبيعته العسكرية الخشنة التى لا تعرف المجاملات أو المعاملات الرقيقة !!

نظر إليها مداعبا :

ــ وتطور الأمر بعد ذلك ؟!

استمرت فى حديثها بجدية تنم عن لهفة :

ــ عندما أوشك أن يغادر المستشفى عائدا إلى الجبهة مرة أخرى .. بدا عليه التردد فى أن يبوح لى ببعض الكلمات أو المشاعر .. وهو الذى لم يعرف التردد فى حياته .. تغلب على خجله بشكرى على الرعاية التى تلقاها على يدى .. لكن الذى ود أن يشكرنى عليه حقيقة أننى .. دون أن أدرى .. غيرت فكرته التقليدية عن المرأة تماما .. المرأة التى انصهر

معدنها فى بوتقة الحرب كأنقى ما يكون .. وكنت فى الواقع معجبة برجولته وبطولته .. ولذلك عندما قال إنه يتمنى أن يتزوج من فتاة مثلى ابتسمت دون أن أعلق فأضاف بتلقائيته المحببة : إن السكوت علامة الرضا !

نظر خالد إلى ساعة الجدار وقال :

— يبدو أن الزواج تم بنفس إيقاع الحرب السريع اللاهث ؟!

— لم أتردد طويلا فى قبول عرضه بالزواج !

عاد إلى ابتسامته المتسائلة فى دعابة :

— ألم أقل لك إنها قصة حب رومانسية بمعنى الكلمة ؟!

أجابته بجدية بالغة :

— لم يكن حبا بالمعنى الشائع التقليدى .. بل كان حاجة ملحة إلى أليف يشد من أزر الآخر فى وقت المحنة .. ويصبح جزءا لا يتجزأ من الكفاح من أجل الوطن كله .. وبذلك يتحول معنى الوطن إلى كيان يتجسد فى شخص حبيب يشتاق للعودة إليه والارتماء فى أحضانه !

كم اشتاق لتحليلاتها العميقة وآرائها الرفيعة :

— عندما يأسر حب الوطن كل القلوب فى لحظات المصير فإن كل أنواع الحب الأخرى تتحول إلى مجرد روافد أو فروع منه !!

— يكفى أنك جئت خصيصا من مصر لتشاركنا هذا الحب !!

— لكن كيف سمح لك بالاستمرار فى هذا العمل الشاق الخطير برغم متاعب الحمل والولادة؟!

— عدنان رجل صادق للغاية .. لا انفصال عنده بين الأقــوال

والأعمال .. عندما أخبرنى بأن رأيه فى المرأة قد تغير .كان يعنى ما يقول .. وبرغم أنه كان من المؤمنين بكثرة العيال الذين سيدافعون عن أرض الوطن ضد كل الأطماع المتربصة بها .. فإن فكره تطور لدرجة أنه آمن بأن عملى فى المستشفى الميدانى أهم من رعاية طفلى زهير ورشيد اللذين تركتهما فى بغداد بين يدى أمى الحريصة على رعايتهما كأفضل ما يكون !

تذكر خالد دعاء وأيمن فهفت نفسه إليهما :

ــ أتمنى من الله أن تنتهى الحرب بالنصر وأن تعودا إليهما سالمين !

استطردت فى حماسها المتدفق كأنها لم تستمع إلى أمنيته :

ــ تصور أنه قال لأمى يوم تركنا زهير ورشيد لديها : إن ما تفعله ليلى فى الجبهة لا يستطيع أى مواطن أن يقوم به !!

ــ إنه خبير عسكرى يؤمن بما تثبته له التجربة العملية !

شعر خالد ببوادر الاسترخاء تسرى فى عضلاته فنظر إلى ساعة الجدار ثم نهض منتفضا :

ــ لا داعى للراحة أطول من هذا .. أمامنا عمليتان يمكننا بعدهما أن ننام بالفعل !!

نهضت بدورها والقلق ينضح على كلماتها :

ــ إذا كنت متعبا يمكنك تأجيلهما للغد أو تحويلهما إلى جراح آخر !

ابتسم فى ثقة :

ــ كانت أول حكمة أو نصيحة مطبوعة على أغلفة الكراسات ونحن فى المدرسة الابتدائية تقول : لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد !

تذكرت إصراره وصلابته فلم تملك سوى الانطلاق خلفه إلى غرفة العمليات وهى تنادى أعضاء الفريق الطبى من حجرتين على جانبى الممر المشع برائحة المطهرات وظلال المصابيح الشاحبة ، والمردد لصدى الانفجارات التى عادت تدوى عند بعض أطراف البصرة .

(٤)

قرأت سهام خطاب خالد للمرة العاشرة فى ذلك اليوم . كان خطابا موجزا للغاية يحكى فيه عن أحواله والعمليات التى يجريها ليل نهار فى المستشفى الذى أكد لها أنه وسط تلال تحميه من غارات الصواريخ ، أما الطائرات فلا تجرؤ على عبور أجواء البصرة التى أصبحت قاعدة عسكرية بمعنى الكلمة . ألقت الخطاب مفتوحا على مقعد مجاور لتنتقل بعينيها من حين لآخر بينه وبين دعاء وأيمن الجالسين أمامها إلى المكتب يستذكران دروسهما .

قبل وصول الخطاب كان الندم يكاد يقتلها لاعتقادها الجازم أن غيرتها كانت السبب فى هروبه من جحيمها إلى الحرب . لكنها لم تلحظ بين سطور الخطاب ما ينم عن هذا ، بل شعرت أنه يقوم بمهمة يحقق فيها ذاته برغم المخاطر المحيطة بها ، بل إنه يؤكد لها أن الخطر مواكب لحياة الإنسان لا يستطيع أن يجزم فيما يتصل بأى شىء قد يقع له فى المستقبل ، فإن عليه أن يؤدى الواجب الذى يحقق به رسالة وجوده على الأرض ، أما أية اعتبارات أخرى فليست فى نطاق إرادته وقراره .

حكى أيضا عن زملائه من الخبراء المصريين الذين يساهمون فى المجهود الحربى ، فى حين يفلح الفلاحون المصريون الأرض مع إخوتهم العراقيين وكذلك العمال بل والباعة فى المحال التجارية . إنها الأخوة العربية بعيدا

عن أية شعارات .

حاول أيضا أن يطمئنها إلى أن أجهزة الإعلام العالمية تبالغ فى تصوير شراسة المعارك الدائرة على جبهة البصرة بالذات ، لكن سهام لم تقتنع إذ أنها رأت بنفسها على شاشة التلفزيون لمحات من الجحيم الذى فتح أبوابه هناك . فبعد سفره بدأ اهتمامها بالسياسة وأحوال العالم حولها ، وقرأت ما قاله خامينى رئيس النظام الإيرانى بأن مدينة الفاو وشبه جزيرة الفاو فصلت العراق عن البحر بعد احتلال إيران لها ..وخطورة هذه المنطقة أنها تقع بالقرب من أهم المناطق التجارية والعسكرية والسياسية العراقية وهى مدينة البصرة . فهو يشير إلى مدينة البصرة على أنها هدف لنظامه باعتبارها الحصن الذى إذا وقع فإن الحصون التالية له سوف تتداعى وبذلك يتم إحياء الإمبراطورية الفارسية الغابرة !! .

أما دعاء وأيمن الجالسان أمامها للاستذكار فى هدوء لأول مرة بعد توتر وقلق شديدين منذ سفر أبيهما إلى العراق ، فقد سرى الخطاب ببرد الراحة والاعتزاز فى صدريهما ، بل وتمنى أيمن فى داخله أن يتفوق كأبيه وتستعين الدول الأخرى بخبرته النادرة ! أما دعاء فقد تمنت أن تنتهى الحرب وتزور طنط صفاء وآنكل سعدون وولديهما طارق وسلمى اللذين لم تلتق بهما حتى الآن !

دقت الساعة الذهبية المعلقة على الجدار العاشرة مساء فتساءلت سهام :

ــ ألم تنتهيا من دروسكما بعد ؟!

نظر إليها أيمن بعينيه السوداوين كأنهما صورة مصغرة لأبيه :

— دخول كلية الطب يحتاج لسهر الليالى !

ابتسمت فى وداعة جديدة على وجهها :

— أنت فى السنة الأولى الإعدادية وتفكر فى الالتحاق بكلية الطب ؟!

التفتت دعاء وهى تغلق الكتاب أمامها :

— من شابه أباه فما ظلم !

ضحكت سهام ولكن فى اقتضاب :

— ما هذه الحكمة التى هبطت عليكما فجأة ؟!

نهض كلاهما ليحيطا بها من الجانبين فاحتضنتهما فى حين بدا على أيمن سؤال مقلق :

— هل سيبقى بابا فى العراق مدة طويلة ؟!

أجابته وقد أيقظ فى داخلها مكامن القلق القديم :

— لا أعرف يا أيمن على وجه التحديد .. لكننى أعتقد أن الانتصارات الأخيرة التى أحرزتها العراق يمكن أن تجبر إيران على التراجع عن مخططها العدوانى !

قالت دعاء لأمها وقد كمنت فى حضنها :

— لو كنت تشعرين بالملل يا ماما لتركك العمل بعيادة جدى ..واقتصار اهتمامك على البيت فقط .. فأرجوك العودة إلى العمل !

احتوت كتفيها بذراعها :

— رعايتى لكما لا تقل فى أهميتها عن الاشتغال بالطب ! من سيقوم بتوصيلكما إلى المدرسة وإعداد الطعام والإشراف على مذاكرتكما ؟!

علق أيمن بكلمات جعلته يبدو رجلا ناضجا لأول مرة :
ــ كل هذا فى الصباح .. أما جدى فلا تفتح عيادته إلا فى المساء!
قالت الأم فى عتاب هامس رقيق :
ـ سأعمل إذا وجدت وقت الفراغ الكافى !
أضافت دعاء كأن أمها لم تقل شيئا :
ــ أما بالنسبة للإشراف على مذاكرتنا .. فقد كبرنا وأصبحنا نعرف المسئولية .. ولن يلتهمنا العفريت فى المساء إذا مكثنا فى البيت بدونك !!
ضحك ثلاثتهم وأيمن يضيف :
ــ أجمل ما فى خطاب بابا أنه وعدنا بالاتصال التليفونى للاطمئنان عليه !!
حذرته سهام بإصبعها :
ــ إذا سمحت الظروف !! فالاتصالات التليفونية فى زمن الحرب ليست بالسهولة التى تتصورها !
أضافت دعاء :
ــ نحن لسنا طماعين .. يكفينا الخطاب .. بطىء لكنه أكيد !
نهضت الأم مدعية الحسم :
ــ هيا إلى النوم .. فالثرثرة يمكن أن تمتد بنا حتى منتصف الليل !
نهضا معا ليقبلاها فى صوت واحد :
ــ تصبحين على خير !
ــ وأنتما من أهله !
ذهبا الى الفراش لتدخل هى غرفة النوم التى تعيش فيها أطياف خالد

وهمساته وأنفاسه التى تكاد تلفح وجهها ! كيف يكون لغياب إنسان حضور أقوى من وجوده الفعلى ؟! سؤال طالما ألح على سهام كلما آوت إلى فراشها منذ سفر زوجها ! كم عذبته بأسئلتها واستجواباتها وتحرياتها دون أن تستطيع أن تكبح جماح نفسها ؟! كم ندمت على انسياقها الأعمى وراء هواجسها المسعورة ، لكنها سرعان ما كانت تعود لتغمرها كموجة عاتية ؟! وها هى الآن تحاول التخلص من موجة الندم الأكبر التى أغرقتها حتى أنفها وكادت تزهق أنفاسها منذ رحيله ! صحيح أن قضايا القومية العربية كانت من الأفكار المسيطرة على عقل خالد منذ شبابه الباكر ، لكن من الممكن أن يكون جحيم الغيرة قد عجل بسفره !!

دفنت رأسها بين طيات الوسادة لعلها تتخلص من هواجسها الملتهبة وتفوز بالنعاس الذى عز عليها منذ رحيله !! فلا يعقل أن تتحول حياتها إلى حلقة جهنمية مفرغة من الغيرة ثم الندم وهكذا !! آن الأوان لتحسم أمرها مع نفسها فلا أحد يستطيع ذلك سواها !! ولتبدأ الآن بالروح السائدة فى الخطاب الذى أرسله خالد الذى أكد لها أنه يمر بأروع تجربة فى حياته ، وتشبه إلى حد كبير التجربة التى مر بها فى حرب أكتوبر التى لم يعاصرها دعاء وأيمن !! فقد سمعا فقط عن المحن التى عبرها أبوهما والبطولات التى خاضها ، أما الآن فهما شاهدان على بطولة أبيهما على الطبيعة !! ولهما أن يفخرا به ما شاء لهما الفخر أمام أقرانهما !!

وعليها الآن أن تفعل نفس الشىء ؟! ستطرد الندم من كهوف نفسها لتنفرد بعد ذلك ببقايا الغيرة كى تقضى عليها قضاءً مبرمًا !! والإنسان يعيش حياته مرة واحدة فقط ، وإذا كان خالد قد بحث عن معنى حياته

فى مواجهة الخطر الداهم ، فعليها أن تبحث هى عنه فى مواجهة أنياب الغيرة التى تنهشها وكهوف الندم التى ضلت طريقها فيها !!

تقلبت فى الفراش وهى تؤكد لنفسها :

— الغيرة لاتعنى سوى فقدان الثقة فى النفس : فكيف كانت تصطلى بنارها من شبح فتاة رحلت منذ عشرين عاما ؟!

كان لابد لسهام أن تمر بعملية جراحية تستأصل فيها كل أورام الغيرة ! صحيح أنها عملية مؤلمة لكنها ضرورية كى يصح الجسم !! وتمنت سهام أن تفيق من مخدر العملية لتجد خالدا إلى جوارها بوجهه الأسمر وشاربه الدقيق وعينيه السوداوين وشفتيه الغليظتين ونظراته الحادة .

احتضنت الوسادة حتى اعتصرتها !

(٥)

وجد خالد فى ليلى تجسيدا حيا لحب الوطن عندما يغمر كيان الإنسان خاصة فى زمن المحنة القومية ، بحيث لا يترك فى قلبه مكانا للمشاعر الفردية التقليدية الضيقة الأفق . وجد خالد أيضا إجابات على علامات استفهام ظلت تتراقص أمام عينيه طوال السنوات العشرين الماضية . فقد تأكد على وجه اليقين أن حب ليلى لم يكن حبا تقليديا ينهض على الاشتهاء والرغبة الجسدية ، بل كان رابطة من نوع روحى حميم ، ولذلك ظل كامنا فى أعماقه طوال هذه السنوات . فهو ليس ذلك الحب الذى يرتوى بالجسد وإنما الحب الذى يشتعل بالروح ويتوهج بالفكر .

كان كل منهما يسعد بقربه من الآخر ويتحول إلى شعلة من النشاط المتقد ، وفى الوقت نفسه كان كل منهما بالمرصاد لنفسه كلما شعر برغبة الرجل فى المرأة أو رغبة المرأة فى الرجل ، بعد أن تأكدا أن التورط فى علاقة حب تقليدية من شأنه أن يفسد كل المعانى والقيم الجميلة التى تربط بينهما ! كثيرا ما اجتاحته الرغبة فى احتوائها بذراعيه وحمايتها من الصواريخ التى تتفجر هنا وهناك كوابل من الأمطار التى لا تتوقف ، لكنه سرعان ما كان يكتفى باحتوائها بعينيه وقلبه وعقله ! ولم يشعر أحدهما بأية بوادر من الإحساس بالذنب سواء بالنسبة للزوج الرابض على خط النار أو الزوجة القابعة فى بيتها بالقاهرة !

ذات عصر بعد انتهاء كل العمليات التى أجريت بالمستشفى ، خرج خالد للتريض فى الفناء وحول الأسوار الشامخة من أكياس الرمل ، منتهزا فرصة الهدوء بل والسكون فى أعقاب غارة استمرت عشر ساعات ! كان يعيد فى مشيته قراءة خطاب وصله منذ ساعة من سهام ، وهو يكاد يتلمس بين السطور بعض بشائر التغيير فى نبرة كلماتها وأسلوب تفكيرها ! فهى تدعو له بالسلامة وتعبر عن شوقها البالغ فى انتظار عودته إلى بيته وتؤكد له على أن الحياة بدونه لا طعم لها ولا لون ولا رائحة ! وتعترف بأنها لم تدرك المعنى الحقيقى لوجوده بينهم إلا بعد سفره ! ثم تركت بقية الخطاب لدعاء وإيمن كى يعبرا عن شوقهما المستعر لعودة أبيهماالبطل متوجا بأكاليل الغار !! وهى التى لم تكن تشعر بوجودهما أيضا نتيجة لأسوار الغيرة التى عاشت داخلها ولاجترار هواجس النفس التى نهشتها ليل نهار !!

لكن هاجسا متسائلا ألح على وجدان خالد :

— هل يمكن أن يتغير الإنسان من النقيض إلى النقيض لمجرد تجربة طارئة أو عابرة قد تنتهى آثارها بانتهائها بالفعل ؟!

لكنه عاد ليؤكد لنفسه أنها ليست مجرد تجربة طارئة أو عابرة تلك التى تمتحن الإنسان بوضعه فى مواجهة الموت فى كل لحظة يعيشها ! لابد أن تترك آثارها غائرة فى نفسه وأن تغير من اتجاه مسيرته! لابد لسهام أن تدرك قيمة وجوده الحقيقى فى حياتها نتيجة لخوفها فى كل لحظة من تلقى خبر فقده إلى الأبد !! فالحياة الروتينية التقليدية كثيرا ما تطمس المعنى الحقيقى لحياة الإنسان تحت وابل التراكمات والتكلسات والرواسب اليومية التى

تتحول فيما بعد إلى طبقات حجرية مثل تلك التى يقيس بها الجيولوجيون عصور ما قبل التاريخ !

دس خالد الخطاب فى جيب معطفه الأبيض فى حين بلغ مسامعه وقع أقدام قادمة من الخلف . التفت ليجد ليلى تتقدم باسمة كعادتها لتلحق به وتتساءل :

ـــ كيف حال سهام ودعاء وأيمن ؟!

سارت إلى جواره وهو يجيب :

ـــ الحمد لله !!

ـــ أرجو ألا تصب لعناتها علىّ !! فأنا لم أحرمها منك كما قد تظن !

ـــ سهام لا تعرف شيئا عنك !! فأنا لا أستطيع أن أتنبأ ماذا يمكن أن يحدث لها لو علمت أننا نعمل سويا فى مستشفى واحد ؟!

ـــ يكفيها خوفها الدائم عليك !!

دارا حول أسوار الأكياس الرملية وصوت خالد يردد صداه السكون المطبق :

ـــ عجيب أمر هذا السكون !! إنه دائما السكون الذى يسبق العاصفة !!

ـــ اعتادت الآذان دوى الانفجارات والقنابل والصواريخ .. لذلك أصبح السكون أشد وطأة عليها !

نظر خالد عبر الأفق تمسح عيناه المنازل المنهارة والأشجار المحترقة ومتاريس الأكياس الرملية :

ـــ كتب على هذه المدينة الوادعة أن تتحول إلى مدينة أشباح ..

أو بمعنى أصح مدينة الأقدار !

ــ نحن نطلق عليها مدينة المدن ! فهى المدينة الساهرة على حماية مدن العراق ومدن الأمة العربية كلها !! وخمينى يخطط لانقلابات متتالية فى فى كافة الأقطار العربية والإسلامية كى يقيم امبراطورية تحمل الاسم الإسلامى فقط وتكون تحت قيادته .. ولذلك يحاول احتلال الأراضى العراقية باسم الدفاع عن الإسلام .. وقد لا يعلم الكثيرون أنه حتى الآن لم تعلن إيران بشكل رسمى عن حدودها مع كافة الدول المجاورة لها .. كذلك فقد اعترف منتظرى فى نداء وجهه إلى مقاتليه فى الجبهات بأن طريق القدس يمر من كربلاء !

كان يعشق حماسها الوطنى المتدفق ووعيها السياسى العميق :

ــ عجيب أمر هؤلاء الناس .. يتشدقون بتحرير القدس فى العلن .. ويتحالفون مع صهاينة تل أبيب فى الخفاء !

ــ لكن الصمود العراق والعربى أفشل العديد من مخططاتهم .. فاستعاضوا عن أحلامهم فى كربلاء بأرض الفاو وتقطيع الأرض العراقية إلى أجزاء يساومون عليها بعد ذلك !!

ــ أروع ما لمسته هنا أن سنوات الحرب أضافت إلى العراق قوة وتماسكا للشعب فى الداخل وبعدا جديدا بدا واضحا من خلال حركة البناء وفى جميع مناحى الحياة اليومية !

ــ البصرة هى المدينة الوحيدة التى لن يبدأ بناؤها من جديد إلا بعد انتهاء الحرب !

دار خالد بعينيه عندما بلغا الضلع الآخر من المستشفى فرأى أعمدة

البرق والهاتف المحطمة والإسلاك المتقطعة التى اختلطت بـالأسلاك الشائكة وبعض خوذات الجنود وجواربهم :

ـــ واضح من الغارات المسعورة والمستمرة على البصرة أنها تهدف لتدمير القوات المحيطة بالبصرة شمالا وجنوبا ثم تطويق البصرة واحتلالها واقامة كيان عميل له فيها !

ـــ تمكنهم من احتلال مدينة الفاو على شط العرب وهى ثانى ميناء اقتصادى للعراق بعد البصرة .. وذلك لوجود الأرصفة الخاصة للتحميل والتفريغ والمشهورة باسم أرصفة المصابيح الأربعة ومستودعات النفط الاحتياطية وغيرها من المنشآت .. هذا الاحتلال ضاعف من غرورهم المجنون الأحمق وزين لهم القدرة على اختراق البصرة وقطع الطرق المنتهية إلى مينائى البكر والعمية والسيطرة على خور عبد الله الذى يعد الطريق التموينى الوحيد للعراق على الخليج الفارسى ! لكنك كما تلمس بنفسك كيف تحولت البصرة إلى فوهة نار رهيبة تحرق المارقين والغزاة !!

بدت عند الأفق بعض الدبابات المحترقة فى مواجهة تل من الأحجار والرمال وجذوع النخيل . كان الدخان الأسود يتصاعد فى أجواز الفضاء ويملأ الهواء برائحة اعتادتها البصرة منذ سنوات ! تساءل خالد فى همس وكأنه يناجى نفسه :

ـــ أما من نهاية لكل هذا الخراب والدمار ؟!

انطلقت كلماتها قاطعة كالسيف :

— ليس قبل كسر أنف العدو !! انهم لا يفهمون لغة القيم والحضارة الإنسانية !

— واعتقد أن هذا ما يفعله الآن سلاح الطيران العراقى الذى يمطر كل مدن إيران بسيول من النار !

كانت الشمس تميل إلى المغيب حمراء قانية فى مشهد مهيب وقد افترشت بردائها خط الأفق الذى لا يزال يئن تحت وطأة أعمدة الدخان المتصاعدة فى سكون رهيب ! ضحكت وهى تنظر إلى ساعة يدها :

— ماذا جرى ؟! مضت ساعة وثلث و لم تقع غارة بعد ؟!

لم تكد ليلى تنتهى من نطق كلماتها ، وإذ بالانفجارات تتوالى شمالا وجنوبا ، وفوهات المدافع الرابضة تطلق جحيمها . أمسك خالد بيد ليلى ليسرع بها إلى داخل المستشفى عبر الفناء لكن الحمم الحمراء الطائرة فوق الرؤوس ودوى المدافع كهزيم الرعد دفعه إلى الارتماء وهو يمسك بخصرها فى ركن آمن بين أكياس الرمل . وبرغم كل شىء قال ضاحكا :

— كأنهم كانوا يتصنتون علينا !!

ضحكت بدورها وسط دوى الانفجارات وقعقعة القنابل :

— لو كانت كلماتى حاسمة لدرجة أنها تثير غارة .. ففى امكانى مضاعفة حسمها لإنهاء الحرب !!

لم يكن وجهه قريبا من وجهها كما هو الآن ! آه !! كم هى جميلة فى مظهرها وجوهرها !! التقت العيون فى صمت ممزوج بالدوى والقعقعة فأرخت ليلى جفنيهاالتخفى بريق عينيها ! وقع انفجار قريب أحال المنطقة المجاورة للمستشفى إلى آبار وبراكين ونافورات من شظايا الأحجار

والصخور ودفقات الرمال والأتربة فإذا بخالد يحتويها فى صدره ويخفى رأسها بذراعه ومعطفه .زلزلت الأرض وكاد يشعر بدقات قلبها وتمنى أن يفتديها بعمره ! لم يتصور أن يصيبها أى مكروه بعد أن عثر عليها قادمة من كهوف الغياب الطويل !

بدا القصف كما لو كان موجها إلى المستشفى بصورة محددة منذ مجيئه الذى مضى عليه الآن ثلاثة شهور وعشرة أيام ! استمر القصف فى ضراوة متصاعدة لدرجة أن ركنا من سور أكياس الرمل طار فى الهواء وتناثر حتى دفنهما وكاد أن يخنقهما لولا ذراع خالد التى تحولت إلى فأس جرفت الرمال فى حين كانت ليلى تسعل بشدة وتحاول استخراج الرمال التى سدت أذنيها وأنفها .

اشتدت وطأة الجحيم تحت الرمال وشظايا بعض النوافذ الزجاجية تنطلق كخناجر أو سكاكين يمكن أن تذبح من يقف فى طريقها ، ومعها صرخات المرضى والجرحى داخل الحجرات . تمنى خالد ومعه ليلى أن يهرعا لنجدتهم وتلبية نداءاتهم المحمومة لكن أى تحرك وسط الشظايا والخناجر المتطايرة لا يعنى سوى الموت العاجل والمحتم ، ولن يستفيد أحد من موتهما .. ومع ذلك صرخت ليلى صرخة مدوية وإذ بنافورة دماء تتدفق من كتفها الممزوج بالرمال والأتربة ! مزق جزءا من معطفه وبادر بربط الكتف بالذراع ثم جلس على ركبتيه وأخذها بين ذراعيه . وبقوة هرقلية لم يعرف من أين حصل عليها ، انطلق بها كالسهم وسط تفريغ الهواء ودواماته فى القصف الذى لا يريد أن يتوقف ، ودخل بها لاهثا إلى غرفة العمليات وقد أحاط به الأطباء والحكيمات !

وفى الحال قامت الإسعافات على قدم وساق على مائدة العمليات وليلى لم تفقد ابتسامتها العذبة برغم شحوب وجهها وخفوت بريق عينيها تحت وطأة الحمرة المختلطة بذرات التراب والرمال . تنفس خالد الصعداء وكاد يخر ساجدا حمدا لله عندما اكتشف أن الجرح سطحى برغم عمقه الغائر بعض الشىء فى كتفها . وسرعان ما طهره وربطه باحكام وهى تحاول كبت تأوهاتها . حقنها بمسكن أعقبه بمضاد حيوى ثم أسرعت الحكيمات بنقلها إلى غرفتها حيث رقدت على فراشها وهى تقول لهن ولخالد الذى نضحت عيناه بالقلق والخوف :

ـــ لا تقلقوا .. الحمد لله .. سليمة !!

كان صوتها خافتا لكنه مسموع برغم بقايا الدوى والقعقعة التى لا تزال تسمع بالخارج وإن تباعدت أصداؤها . طلب خالد من رئيسة الحكيمات المرور والاطمئنان على المرضى الذين أجرى لهم عمليات فى ذلك اليوم ، على أن تأتى وتخبره بما يحتاجونه . أمر حكيمة أخرى بملازمة ليلى برغم اعتراضها على أساس أن اصابتها لا تستدعى كل هذا القلق والاهتمام .

كان الظلام قد أرخى سدوله ومعه توقف القصف المنهال على المستشفى وإن كان دوى المدافع عند أطراف البصرة لا يزال يهز أرجاء المدينة ، والسماء المعتمة تومض من حين لآخر بشهب حمراء وحمم قانية ونيران تضىء الأفق بألسنة تبدو من نافذة الغرفة التى طار زجاجها ومعظم ضلوع خصاصها . ومع ذلك كانت لهفة المجموعة على ليلى أقوى من خوفها من الدمار الذى حاق بالمنطقة .

عادت رئيسة الحكيمات لتقول للدكتور خالد :

— حجرة رقم ٣ .. أصيب بنزيف والدكتور عدى معه !!

— سأذهب إليه حالا !

تبادل نظرات خاطفة مع ليلى الباسمة فى وهن أودعها فيها كل حبه وخوفه وقلقه وتمنياته لها بشفاء عاجل ثم غادر الحجرة بخطوات عسكرية حادة .

أدارت مفتاح المذياع الموضوع إلى جوار فراشها :

— ظن الخومينى أن الإسلام هو ما يفكر به أو ما يقوله ولابد أن يسمع صداه قريبا فى العراق . ذلك إذن مكمن الخطأ الذى وقعوا فيه فى تحقيق مآربهم وما يتوقعونه من نصر إلا أن القائد يلجم نصرهم المزعوم وينبىء بنصرنا :

— إن الاحتفال الرسمى بالنصر آت باذن الله ولكن أشدد فقط على المعركة القادمة .. يجب ألا تعطوهم فيها غطاءً حتى ليوم واحد ليقولوا أخذوا شبرا أو كيلومترا أو يغطون به هزيمتهم التى ستكون ساحقة بعون الله وتكسر عظمهم إلى الأبد .. ليس الآن فقط وإنما تنهى هذا الشر الذى حل فى إيران وتجتث جذوره الفكرية اللعينة لكى لا يتكرر كحالة عدوانية على العرب أو على العراق بعد عشر سنوات أو ثلاثين أو أربعين أو مئة سنة .

ولا يستطيع المذيع أن يمنع صوته من أن يتهدج وهو يواصل تقديم صوت القائد الواثق من النصر فى حديثه إلى الشعب العظيم :

— نحن تحدثنا فى الاجتماع عن طبيعة المعارك التى دارت وتدور شرق البصرة وأنا أقول الآن أمامكم وأمام العراقيين وأمام كل عربى شريف

ينتظر نبأ انتصار العراق بقلب مؤمن .. أقول إن هذه المعارك كسرت ظهر العدوان .. والعدوان الآن يزحف على بطنه .. وباليقظة المستمرة وباستمرار الطرق على هذه الرءوس العفنة سيحصل بقوة الله كل ما تتمنونه وعند ذلك نحتفل جميعا بالنصر .

تزاحمت الخواطر على ذهن ليلى فانشغلت بها عن الألم الكامن فى كتفها : هذا القائد والبطل المغوار يملك كنزا من الثقة والهدوء والوقار والحكمة والنظرة الثاقبة والرؤية البعيدة والإيمان الذى لا يهتز بالله والوطن والشعب برغم كل الظروف الحالكة التى تحيط بنا منذ أن بدأت الحرب التى دخلت عامها الثامن الآن .. وهى ظروف كانت كفيلة بانهيار أى قائد آخر وتقهقره فى مواجهة هذه الحمى الملتهبة المسعورة التى لا تريد أن تهدأ ! لم يهتز القائد بل لم يفقد إيمانه وتفاؤله وثقته البالغة فى اقتراب يوم النصر ! إنه الأب على رأس العائلة العراقية التى تشع بالإيمان والثقة والحماسة التى جعلت المقاتل الذى يمسك البندقية فى الأمام قادرا على الصمود وقادرا على أن يحقق البطولة بصورة جماعية . لقد أصبح صوته لكل عراق وكل عربى ينبوعا لا ينضب من الطمأنينة والثقة والهدوء والإيمان والصمود مهما اشتدت الأعاصير حولنا !!

عاد خالد لاهثا إلى غرفة ليلى فسعد عندما وجدها آذانا صاغية لحديث القائد . جلس على المقعد المجاور وأصداء دعابات سعدون تتردد بين جنبات نفسه :

ـــ يقولون ليلى بالعراق مريضة   يا ليتنى كنت الطبيب المداويا !

لكن صوته الداخلى سرعان ما لهج فى سكون بليغ :

ــ حماك الله من كل مرض يا نور العين والقلب !

أدرك خالد فى ومضة من تلك اللحظات الحادة حقيقة حبه لليلى ! إنها فى نظره الهة بابلية هبطت عليه من التلال المحيطة بقصر نبوخذ نصر تمنحه التفاؤل والبشر والثقة والحماسة والهدوء والوقار والحكمة ! فهل يمكن بعد كل هذا الفيض من النور أن يطمع فيها كأنثى من ملايين الإناث ؟! فهذا الضياء الذى تغمر به كل من حولها يسمو بمشاعر الإنسان وأحاسيسه إلى آفاق لا يبلغها سوى من صفت نفوسهم وتجردت من قيود الغرائز الحسية وسطوتها .

كان الوهج الذى يومض من حين لآخر من أفواه مدافع شرق البصرة يسطع من النافذة المحطمة على وجه ليلى فيجعل منه لوحة مبهرة رسمتها أنامل القدر ! فبرغم الانفجارات المدوية فى أعقاب ألسنة الوهج التى أحالت بيوت البصرة المهجورة إلى كتل ومكعبات تلفحت بالسواد والظلام ، فإن الابتسامة الوادعة الحانية لم تنحسر عن عينيها الواسعتين اللتين لم تفقدا بريقهما وسط شحوب وجهها وتورد وجنتيها الذى أنبأ بارتفاع درجة حرارتها .

جس خالد جبينها براحته فأسرع إلى وضع الترمومتر بين شفتيها وانتظر لدقيقة أو دقيقتين ثم أخرجه ليقرأه فى ضوء المصباح الشاحب ودون أن يفتح فمه بكلمة منحها مسكناً ابتلعته وهى تقول بعد أن أتت على كوب الماء :

ــ لا تضيع وقتك إلى جوارى !. المصابون فى حاجة إليك !! وسأقوم لمساعدتك بمجرد تمكنى من تحريك ذراعى بسهولة !!

تهدج صوته رغما عنه :

ـــ كلنا فى أشد الحاجة إليك !

ربتت على يده فى حنان دافق والحكيمة تمسح وجهها بقطعة من القطن المبتل بالماء لتزيل ذرات التراب والرمل التى لا تزال عالقة برموشها وشعرها وأذنيها وعنقها وجيدها . سرت لمسة يدها بمس كنهر الجنة وهو يتدفق فى عروقه فجعل النار بردا وسلاما ، وكان على وشك أن ينحنى ليقبل يدها لولا أن تماسك فى اللحظة الأخيرة . كانت الشحنة داخله أكبر وأعتى من أن يحتملها فلم يملك سوى تنهيدة محرقة أعقبتها دمعتان كبيرتان على خديه وهو الذى عرف بدموعه العزيزة . تظاهرت الحكيمة بالتجاهل التام وهو يمسح دمعتيه بأنامله المرتعشة .

(٦)

لم يغمض لخالد جفن فى تلك الليلة التى توهجت فيها السماء المظلمة بوميض الانفجارات ، واهتزت فيها المدينة لدوى القنابل والصواريخ . لكن المستشفى ظل نائيا عن مجال القصف المسعور . تاقت نفسه من لحظة إلى أخرى كى يذهب إلى ليلى فى غرفتها ويظل ساهرا إلى جوارها ! تمنى أن يملك شجاعة اصدار الأمر إلى الحكيمة بتركها كى يحل محلها ، لكنه ظل أملا معلقا طوال الليلة مثل تلك المصابيح الفسفورية التى تبدو معلقة من حين لآخر فى السماء المظلمة التى تطل على الخليج .

إنها أطول ليلة فى التاريخ ، فيها تمر الثوانى واللحظات كدهور وعصور ! كان يعرف فى ليلة قوة الشخصية وعمق البصيرة ورحابة الفكر والثقافة وعشق التاريخ والحضارة ، لكنه لم يتصور أن ترتقى بهذه البساطة مدارج البطولة حتى قمتها ! زوجها عدنان فى فوهة البركان الذى تمطر حممه المدينة كلها ، وابناها مع أمها فى بغداد التى لا تبعد أيضا عن مرمى الصواريخ ، ومع ذلك لم تهتز يدها فى أية عملية من العمليات الجراحية التى شاركت فيها ، و لم تعبر عن مجرد قلقها على أحد أفراد أسرتها ! كانت تسلك كما لو كانت قد قبلت تحدى القدر بايمان راسخ كالجبال الرواسى ! كل ما تعرفه أن عليها أن تؤدى واجبها على أفضل وجه وليكن ما يكون بعد ذلك ! لابد أن هذه البطلة من ذاك الشعب البطل !

فالبطل من نسيج عصره !

تسللت خيوط الفجر الوليد إلى الغرفة المعتمة ومعها لسعات خفيفة من برد نوفمبر . انتفض من فراشه ليرتدى معطفه الأبيض ويمر على المصابين بعد أن انتظر طوال الليل استدعاء أحدهم له دون جدوى ! كان فى انتظار أى استدعاء لعله يأخذه ذريعة للمرور على ليلى والاطمئنان عليها ، لكن يبدو أنهم كانوا يتماثلون للشفاء بما فيهم المصاب الذى شكا من النزيف وقام باسعافه !

انتهى من المرور على غرف المصابين ليهرع بعد ذلك إلى حجرة ليلى فوجدها جالسة فى فراشها تستمع إلى المذياع وهو يذيع آخر البيانات العسكرية . كان البيان الأخير مرعبا وخطيرا . فطوال الليل كان العدو يستهدف من المعركة الضارية الشرسة احتلال البصرة ، مدينة المدن وإقامة دويلة عميلة له فيها ، يستخدمها لمواصلة الحرب والعدوان على العراق وفرصة الهيمنة على منطقة الخليج العربى . كانت معركة من طراز قل نظيره ، تداخلت فيها الرؤى والتقديرات لمن ينظر إلى مفرداتها المتتابعة عن بعد بين ما هو حقيقى وبين ما هو أسطورى لهول ما يقع فيها ، ولبسالة الرجال واستعدادهم للتضحية والفداء الذى ليس من اليسير إيجاد ما يقربه إلى ذهن المراقبين من الشواهد إلا هو ليبعدهم عن وصف ما يتحقق من أنه نمط من أنماط المعجزات التى يرعى الله فيها العراق ويبقيه شامخا قويا . لقد صمد العراقيون فى هذه المعركة صمود الجبال الرواسى وجعلوا من حدود البصرة مقبرة كبيرة للغزاة .

ابتسمت ليلى ابتسامتها العذبة الساحرة وهى تستمع لسؤال خالد :

— كيف الحال اليوم ؟!

— الحمد لله .. الحرارة عادية والألم تراجع ويمكننى استئناف العمل بالذراع الأخرى !!

— لن تشاركى فى العمليات إلا بعد تمام الشفاء !!

— عموما .. لن يستغرق الأمر أكثر من يوم أو يومين على أكثر تقدير !

ابتسم خالد بدوره :

— آه لو كان فى مقدور الطب أن يخفض من حرارة البصرة الملتهبة حتى ولو بالمسكنات !!

— لن تنخفض حرارة البصرة إلا باستئصال الأجسام الغريبة أو الجراثيم المميتة التى تحاول اختراق جسمها !

ثم انتابتها مسحة من الشرود فأدرك فى الحال ما ينتابها :

— الحمد لله أنك قريبة من عدنان .. بل وفى الميدان معه حتى يمكنك الاطمئنان عليه أولا بأول !

نظرت عبر النافذة محاولة اختراق أكياس الرمل ببصرها وبصيرتها :

— حلمت به الليلة .. كان يبدو حزينا مهموما !

— لعله كابوس نتيجة لألم الجرح وارتفاع درجة حرارتك !!

تلاشت الانفجارات وتراجع الدوى وأطبق السكون على أرجاء البصرة لدرجة كادت فيها الآذان ألا تحتمله ! كادت تلتقط تردد الأنفاس فى الصدور وحفيف النسيم العليل فى الخارج ! قفز عصفوران على قمم

أكياس الرمل وهما يرسلان شقشقتهما كأن شيئا لم يحدث !

حاول خالد أن يخرجها من كآبة الشرود التى حطت عليها :

ـــ مهما وقع فالسلام هو القاعدة .. والحرب هى الاستثناء !

لكن السكون المطبق اخترقته ضجة منتظمة قادمة من بعيد ! كان هدير مروحة هليوكوبتر يتصاعد دويه مع الاقتراب ، مع وساوس فى نفوس البعض بأنها قد تكون طائرة للعدو ! لكن مع كمون الجنود الرابضين خلف متاريس الرمل والأحجار فى المناطق المحيطة دون أن يردوا عليها ، تبخرت الوساوس والهواجس تحت أضواء الشمس التى لم تخرج بعد من خدرها . هرع معظم العاملين بل وبعض المصابين الذين استطاعوا السير ، وفى مقدمتهم الدكتور عدى وخالد وليلى لمتابعة الطائرة التى شرعت فى الهبوط فوق أرض خلاء خلف المستشفى وهى تثير زوبعة من التراب والرمل بمروحتها الهائلة ، التى أعادت إلى الأذهان أعاصير الأمس فى بداية المعركة .

لا تعرف ليلى لماذا أصابها الانقباض فجأة ؟! شعرت بوخز عميق فى جرح كتفها ردد صداه قلبها !! استكانت الطائرة على الأرض الخلاء وصمت محركها لتتوقف المروحة بعد لحظات . تحول الواقفون إلى عيون شاخصة إلى الطائرة التى فتحت بابها وتدلى منه سلم صغير هبط جنديان عليه وهما يحملان مقدمة نقالة عليها ضابط مصاب فاقد الوعى والدماء تلطخ زيه العسكرى . وبمجرد بروز الجنديين اللذين يحملان مؤخرة النقالة وهبوطهما على السلم فى حرص شديد نبت صرخة من بين شفتى ليلى :

ـــ عدنان .. عدنان !!

ثم أطلقت ساقيها للريح صوبهم وخلفها خالد والدكتور عدى ليساعدوا فى حمل النقالة حتى لا تهتز فوق مطبات الطريق الحجرى الوعر خوفا من وجود تمزقات وكسور . احتضنت ليلى رأسه وهى تسير إلى جواره بخطوات محمومة :

ـــ عدنان .. حبيبى !! روحى فداك!

تململ عدنان كمن يعانى من كابوس وتمتم :

ـــ حبيبتى .. البصرة .. حبيبتى .. ليلى !!

ثم لاذ بالصمت المطبق فى حين كان خالد يحملق فيه ذاهلا ! كان ينام كطفل برغم منظر شاربه الكث وعضلاته المفتولة وطوله الفارع وزيه العسكرى الذى يحمل رتبة العميد . أسرعوا به إلى غرفة العمليات حيث نقلوه على الفور إلى المائدة لإجراء فحوص الأشعة التى سرعان ما كانت فى أيدى الدكتور عدى والدكتور خالد وليلى يتأملونها بعيون ملهوفة وقلوب واجفة وأفواه فاغرة ! وإذ بالدكتور عدى وخالد يقولان فى لحظة واحدة :

ـــ ثلاث عمليات !

ثم أضاف الدكتور عدى :

ـــ والثالثة لا يمكن اجراؤها هنا ! لابد من نقله إلى بغداد !

أجاب خالد وهو لا يزال يتفحص الأشعة :

ـــ يمكن استخراج شظية الرئة والطلقة الموجودة فى الجانب الأيسر .. ونؤجل الطلقة الملاصقة للعمود الفقرى لحين نقله إلى بغداد !

تدخلت ليلى فى الحوار بعد أن تماسكت بعض الشىء لممارسة دورها كطبيبة :

— أفضل اجراء العمليات الثلاث فى بغداد .. فليس لدينا دم كاف لنقله إليه !

علق الدكتور عدى :

— هناك خطر على حياته لو نقلناه بحالته هذه .. أما الدم فيمكننا الحصول عليه بالطائرة !

قالت ليلى وهى تقاوم أمواج اليأس :

— دمه من فصيلة oالتى يصعب الحصول عليها !!

ابتسم خالد فى محاولة لرفع روحها المعنوية :

— لا تحملى هماً .. إنها نفس فصيلتى ! أنا من رأى الدكتور عدى ! الوقت ضدنا .. وعلينا أن نقلل احتمالات النزيف بقدر الإمكان !

وسرعان ما تحولت غرفة العمليات إلى خلية نحل ! كانت احتمالات الخطر قائمة فى كل لحظة لكن لابد من مواجهتها ! النبض .. التنفس . النزيف ! فى حين وقفت ليلى تتابع لأول مرة دون أن تشارك برغم نسيانها لوخز الألم فى كتفها وقدرتها على تحريك ذراعها بطريقة شبه طبيعية .. شدت عيناها بلا طرفة واحدة إلى شاشة جهاز قياس دقات القلب لدرجة أن دقات قلبها تحولت إلى نسخة مكررة منها فى سرعتها وبطئها ، فى صعودها وهبوطها ! ومن فتحة الصدر خرجت الشظية ، كتلة من الحديد المنصهر برؤوسها المدببة كحدود الخناجر المتدثرة بالدماء الكثيفة الساخنة وذلك فى وقت قياسى إذ أن الفريق الطبى كله كان فى سباق

مع الزمن .

مع الشروع فى عملية استخراج الطلقة الموجودة فى الجانب الأيسر أصاب النبض وهن شديد وأوشكت دقات القلب على التوقف ومعها أوشك قلب ليلى على التوقف أيضا ! أسرع خالد بتدليك القلب لكن الجهاز لم ينبىء بالخير ومع ذلك لم يفقد الأمل ، استمات فى مهمته حتى عادت الدقات إلى إيقاعها وإن كان بطيئا بعض الشيء لكن كل من فى الغرفة تنفس الصعداء ؛ ومنهم من مسح عرقه ، ومنهم من أغمض عينيه كى يستعيد توازنه ! أما ليلى فكانت تمر بمعركة لا تقل فى ضراوتها وشراستها عن تلك المعركة التى خاضتها البصرة طوال الليلة الماضية ! كانت المعركتان من أجل الدفاع عن الحياة !

عاد القلب إلى نبضه الذى مكنهم من فتح الجانب الأيسر واستخراج الطلقة الكامنة فيه ، والتى كانت لحسن الحظ سطحية إلى حد ما . نظر خالد لعدى وقال تحت قناعه :

ـــ دكتور عدى .. أنا فى انتظار نقل الدم !

فاضت نظرات الفريق بالحب والعرفان لكنها لم تغمر خالد ، لانهماكه فى اعداد نفسه على الفراش المتنقل الذى أحضروه ليوازى مائدة العمليات .وبمجرد أن انتهى الدكتور عدى من اقفال الجرح بالخيط الطبى ، شرع على الفور فى مد الخراطيم بين ذراعى خالد وعدنان ، وسرعان ما جرت الدماء مع عينى ليلى التى ركزتهما أخيرا على وجه خالد الباسم المستسلم المرهق ! من كان يصدق أن يأتى صديق عمرها المصرى إلى العراق بعد فراق دام عشرين عاما ، كى يلتقى بها بالصدفة

للعمل سويا فى مستشفى ميدانى ، ثم يكون الوحيد القادر على امداد زوجها الحبيب بفصيلته من الدم ؟!

لا يمكن أن يكون ما يقع من قبيل الصدفة العمياء العشوائية !! إنه لقاء يجسد المسيرة الحقيقية للوطن العربى منذ أن بزغت هذه الأمة من الخليج إلى المحيط ! هذا الجوهر الثمين يتألق أشد ما يكون التألق عندما ينصهر فى بوتقة المحنة ! لكن ليلى تمنت وسط خضم خواطرها المتدفقة أن يحافظ هذا الجوهر على تألقه الساطع سواء فى الضراء أو السراء !

خرجت ليلى من دوامة أفكارها والدكتور عدى يسحب الخرطوم بعد انتهاء نقل الدم قائلا لخالد :

ــ أرجو ألا نكون قد أجهدناك أكثر من اللازم !

ابتسم خالد وبريق جديد يومض فى عينيه السوداوين :

ــ لا أشعر بأى هبوط !! وإن كانت شهيتى مفتوحة للطعام !!

ــ ستشرب أولا كوبا أو كوبين من اللبن .. ثم أطلب ما تشاء !

ثم انحنى الدكتور عدى على عدنان فى انتظار افاقته من التخدير حين قالت ليلى لخالد الذى جلس فى فراشه :

ــ لا أعرف كيف أشكرك ؟!

ــ هذه أكبر اهانة لا يمسحها سوى الدم !!

ابتسمت ليلى وهى تتابع وجه عدنان الذى شرعت ملامح وجهه فى التعبير عن بوادر غضب ثم ضيق ثم اشمئزاز ثم صفاء وسكون . علق الدكتور عدى فى سعادة :

ــ بدأ تأثير المخدر فى الانحسار !

ارتسمت ابتسامة شاحبة واهنة على وجه عدنان الذى حرك شفتيه كما لو كان سيقول شيئا لكنه سرعان ما عدل عنه فى حين انحنت ليلى عليه متلهفة على حرف واحد يمكن أن ينطقه . قطع الدكتور عدى حبال الصمت وخيوط العيون المشدودة إلى عدنان :

ــ أرى نقله الآن إلى غرفة العناية المركزة!!

ثم ذهب ليفتح الباب وخلفه خالد الذى نبذ فراشه . وفى الخارج كان قائد الطائرة الهيلوكوبتر فى وقفة عسكرية :

ــ نحن فى انتظار الأوامر !

ــ سنحتاج إلى نقله إلى بغداد لعملية جراحية ثالثة ! لكن ليس قبل ثلاثة أيام على أقل تقدير حين تبدأ الجروح فى الالتئام!!

رفع الرجل يده بالتحية العسكرية :

ــ سنحضر بعد ثلاثة أيام لنقله إلى قاعدة عسكرية بعيدة عن نيران العدو ومن هناك سيتم نقله فى طائرة خاصة إلى بغداد !

تم نقل عدنان إلى غرفة العناية المركزة التى خرج منها الجميع باستثناء ليلى . كان عدنان قد فتح عينيه ليرى وجه ليلى بنظرات زائغة :

ــ ليلى .. حبيبتى .. البصرة .. حبيبتى !

أمسكت ليلى يده بأصابع مرتعشة لتقبلها وتبللها بدموعها !

بدت الأرض ممتدة شاسعة فسيحة الأرجاء بخضرتها وحقولها ونخيلها ومبانيها ومصانعها ومعامل تكريرها وقنواتها التى تتفرع وتتشعب لترويها . كانت الطائرة العسكرية الصغيرة تمزق غلالات السحب الصافية الشفافة صوب بغداد فى حين جلس خالد وليلى على يمين فراش عدنان ويساره . قال خالد وهو يتابع المشهد من نافذة الطائرة متسائلا فى مزيج من الدهشة والاشمئزاز :

ـــ كيف خيل للحقد الفارسى أن يظن فى نفسه القدرة على تدمير كل هذا العمران الأخضر البديع ؟!

ابتسم عدنان وقال بنبرات متقطعة خافتة لكنها مسموعة برغم أزيز الطائرة :

ـــ من يسمعك لابد أن يظن أنك عراقى !

ضحك خالد :

ـــ وماذا عن لهجتى المصرية ؟!

ابتسمت ليلى وهى تربت على يد زوجها :

ـــ فعلا .. اللهجات الاقليمية هى أوضح ما يميز بيننا !!

أضاف خالد :

ـــ لكن لا تنسى أن اللهجات تقوم بنفس المهمة فى داخل الإقليم

العربى الواحد ! فنحن فى مصر نستطيع أن نميز أبناء محافظة عن أبناء محافظة أخرى من لهجتهم !

علقت ليلى :

ـــ وهو نفس الوضع فى كل أرجاء العالم العربى !

واصل عدنان حديثه برغم بعض الآلام العابرة فى عينيه :

ـــ حدثتنى ليلى كثيرا عنك ! كنت خير الأستاذ والأخ لها فى مصر !

قال خالد وهو يواصل متابعة المشاهد أسفل الطائرة :

ـــ كل الذين عرفوا الدكتورة ليلى تشرفوا بأخوتها !

واصل عدنان ابتسامته الواهنة :

ـــ وأنت الآن أخى فى العروبة والدم أيضا !!

تمتم خالد :

ـــ أستغفر الله !

تدفق الحماس فى نظرات ليلى مرة أخرى :

ـــ الدماء العربية امتزجت عبر التاريخ .. لكن التمزق السياسى هو الذى حاول دائما الفصل بينها بحواجز مفتعلة مصطنعة .. والآن كلنا أمل فى أن يتحول امتزاج الدماء إلى امتزاج الأفكار والاتجاهات والمسارات !

لوح عدنان بيده مبتسما فى محاولة لكبت الآم ظهره :

ـــ هكذا أنت دائما ياليلى !! تستخرجين من كل حوار قضية قومية !

أضافت بنفس الحماس الجاد :

ـــ وجودنا هنا نحن الثلاثة فى هذا الموقف هو فى حد ذاته قضية قومية !

قال خالد لليلى :

ـــ لا تجهديه كثيرا بالكلام ؟!

ربت عدنان على يد خالد :

ـــ أوحشنى كثيرا الحوار بالكلمات بعد طول حوار بالمدافع والصواريخ والدبابات !

ابتسم خالد :

ـــ اشتدى يا أزمة تنفرجى !

عاد عدنان إلى نبراته المشحونة بالحنان :

ـــ كم تتوق نفسى لرؤية زهير ورشيد واحتوائهما فى أحضانى ؟!

قالت ليلى بنظرات متدفقة بالشجن :

ـــ سأحضرهما لك بمجرد دخولك المستشفى !

علق خالد فى اقتضاب وهو يشعر بانحسار مفعول المسكنات :

ـــ أفضل أن يحضرا بعد اتمام العملية بالسلامة إن شاء الله !

ـــ رؤيتهما ستخفف عنى كثيرا !

أضافت ليلى إلى كلماته الهامسة فى حرقة :

ـــ لم يعتادا رؤيتك هكذا ! دكتور خالد على حق!

ابتسم عدنان لخالد برغم الألم السارى فى ظهره :

ـــ يبدو أننى لم أعد قادرا على لقاء ليلى إلا إذا جرحت !!

قال خالد :

ـــ قصت ليلى علىّ كيف كان اللقاء الأول بينكما !

علقت ليلى :

— زهير ورشيد لم يعرفا حتى الآن معنى السلام !! ولد كلاهما فى الحرب !

علق خالد :

— وهما أكبر دليل على قدرة الحياة على قهر الموت .. وانتصار طاقات التعمير على عوامل التدمير !

جاء المضيف الذى يعمل ممرضا أيضا ليقول :

— من فضلكم اربطوا الأحزمة .. سنهبط فى ظرف دقائق!

أسرع خالد وليلى بتنفيذ التعليمات فى حين تأكد المضيف من أربطة فراش عدنان . وسرعان ما أبطأت الطائرة من سرعتها وقد شرعت فى الهبوط التدريجى ، وملامح المطار بمبناه وممراته تتضح كلما اقتربت . دارت الطائرة نصف دورة لتستوى بعد ذلك فوق المر الذى هبطت عليه لتهز دقات عجلاتها جسم الطائرة وهى تلهث عليه وتقلل من سرعتها حتى بلغت نهاية الممر لتعبره يمينا إلى ساحة المطار حيث توقفت لتفتح بابها ، وسرعان ما انطلقت إليها عربة إسعاف ربضت عند نهاية السلم ، وخرج منها ممرضان أسرعا إلى السلم ليهبطا بعد ذلك حاملين فراش عدنان بمنتهى الحرص والعناية وخلفهم ليلى وخالد لتبتلعهم جميعا السيارة البيضاء ذات الهلال الأحمر الكبير ، وتنطلق بهم عبر شوارع بغداد الغارقة فى دفء الشمس الساطعة بوميض ذهبها .

تابع خالد المرئيات من خلال النافذة الضيقة . كانت الحياة تسير سيرتها الطبيعية فى العاصمة الجميلة وكأنها لا تخوض حربا شرسة دخلت عامها الثامن . الناس يذرعون الأرصفة والحدائق على أقدام واثقة

وبوجوه منشرحة وقلوب مفعمة بالتفاؤل ، يدخلون المحال التجارية ويخرجون منها بما تيسر ، إذ يبدو كل شيء متوفرا . الشوارع فسيحة ونظيفة ، يشقها فى المنتصف شريط من الخضرة الزاهرة ، وتطل عليها الأشجار السامقة سواء تلك التى تضرب بجذورها فى أسفلت الأرصفة أو التى تتراقص أوراقها مع النسيم العليل على ضفاف دجلة . ولولا بوق السيارة الذى مزق هدوء الشوارع التى اخترقها لبدت المشاهد خارج النافذة وكأنها سينما صامتة !

توقفت السيارة أمام بوابة مستشفى كبير لتفتح لها وتدخل حتى باب أحد الأقسام . هبطوا حاملين فراش عدنان ليضعوه على نقالة ساروا بها إلى غرفة الأشعة وخلفهم ليلى وخالد الذى أخرج من حقيبته الأشعة وبيانات الفحوص والتحاليل التى أجريت فى مستشفى البصرة . تفحصها كبير الأطباء وأمر باجرائها مرة أخرى على سبيل التأكد من أن شيئا جديدا لم يطرأ على الحالة . وكان رأى خالد متفقا تماما معه .

كان ترحيب كبير الأطباء بخالد بالغا ورجاه أن يشرفه بالاشتراك معه فى هذه العملية الدقيقة الطويلة . فقد أظهرت صور الأشعة الجديدة التى أخذت من عدة زوايا أن الرصاصة التى مست العمود الفقرى قد أثرت فى إحدى فقراته بحيث يلزم عدنان عملية غضروف أيضا ، ولذلك يمكن أن تستغرق العملية كلها حوالى سبع ساعات ! كان خالد سعيدا بترحيب كبير الأطباء وحماسه الشديد لاشتراكه معه . فلهذا السبب قدم من البصرة ليرد جزءا من الدين الكبير الذى طوق به عدنان عنق بلده .

كان المستشفى مجهزا بأحدث المعدات الالكترونية . وكل جانب

أو ركن له بريق أخاذ . لكن خالداً تلفت فجأة حوله فى قلق ! كان سعدون وصفاء قد وعداه بانتظارهم فى المستشفى بعد مكالمة تليفونية . وقد اعتاد خالد الاتصال بأخته وزوجها كلما سمحت الخطوط التليفونية فكانا على علم بما يمر به تقريبا . وكانت سعادتهما بالغة بالمكالمة الأخيرة بعد قلقهما الشديد عليه فى أثناء المعركة الضارية الأخيرة . وهما أيضا كانا على أحر من جمر للقاء ليلى التى لم ترها صفاء منذ عشرين عاما وأكثر ، والتى سمع عنها سعدون قصصا مثيرة مبهرة دون أن يرى تلك المخلوقة الأسطورية التى بدت فى خياله إحدى آلهات بابل وقد خرجت من طيات التاريخ !

كان خالد على وشك أن يسأل عنهما فى اللحظة التى دخل فيها ممرض ليخبره بأنهما فى انتظاره بالاستراحة . وقبل أن يشرع فى مغادرة غرفة الفحص بالأشعة كان سعدون وصفاء واقفين بالباب . التقوا بالأحضان والقبلات والدموع لتسرع ليلى بدورها للسلام الحار وعناق صفاء التى بادرتها بقولها :

ــ لم تتغيرى كثيرا برغم الأهوال التى مررت بها !

أجابتها ليلى بعذوبتها التلقائية :

ــ ما أعجب الأقدار التى جمعتنا بعد طول فراق !

بادر سعدون بسؤال خالد :

ــ هل أستطيع أن أرى البطل ؟!

أمسك خالد بيد سعدون وقاده إليه قائلا :

ــ على ألا يستغرق اللقاء أكثر من لحظات .. فنحن نعده الآن للعملية .

أمسك سعدون بيد عدنان فى حرارة لم يملك معها سوى أن يقبلها وخالد يقدمه :

— سعدون حسين .. زوج أختى وصحفى !

جذب عدنان يده قائلا :

— أستغفر الله !

تراجع سعدون إلى الخلف خطوتين :

— حفظك الله من أجل العراق والعروبة !

ثم أسرع إلى الخروج من الحجرة ليخفى بوادر الدموع فى عينيه وفى أعقابه صفاء . دفع الممرضون النقالة إلى الممر كي تفتح غرفة العمليات التى احتلها الفريق الطبى الذى سيجرى العملية وفى مقدمته كبير الأطباء وخالد وليلى .

رابط سعدون وصفاء خارج باب الغرفة المغلق بقلبين يلهجان بالدعاء الصامت لنجاة البطل . ظلا يذرعان الممر جيئة وذهابا دون أن يشعرا بأى تعب . لم يحتمل سعدون وطأة الصمت فقال لزوجته :

— انتابنى شعور عجيب بالأمس !تمنيت أن أعود إلى أيام الطفولة !

أجابته بتلقائيتها المعتادة :

— لابد أنك شعرت بهذا عندما كنا فى زيارة زهير ورشيد وجدتهما ! لاحظت أنك انهمكت معهما فى تجريب اللعب التى أحضرتها لهما بل واللعب بها ! لدرجة أن طارقاً وسلمى تركا لك الحلبة واكتفيا بالمشاهدة والمتابعة !!

أضاف بنظرات شاردة :

ـ كدت أحسدهما على الطمأنينة العميقة التى تسرى فى كلماتهما وحركاتهما ؟. والفخر بأبيهما البطل الذى يدافع عن صدر الوطن وأمهما التى تعالج المصابين كى يعودوا إلى استئناف القتال ! فبرغم كل شيء لم يكن هناك ما يعكر صفوهما! حقا إنها جنة الأطفال !

ــ غدا يكبرون ويحملون هموم الوطن على أكتافهم ! أنسيت أنك كنت طفلا مثلهم ! لا أحد يستطيع الفكاك من قدره !

ــ إنها مجرد شطحة خيال !

ــ لابد أن تعرف ليلى وعدنان مسألة الهدايا حتى لا نبدو كاذبين فى نظر الطفلين ! فقد تقبلا الهدايا على أنها مرسلة من والديهما اللذين لا يعرفان عنها شيئا فى الحقيقة !

ــ سأترك هذه المسألة لخالد كى يحلها بطريقته الخاصة ! فكلنا عائلة واحدة على أية حال .. ولا حساسية أو حرج فيما بيننا !!

شعرت صفاء أن الحوار يريحها كثيرا فانهمكت فى مواصلته مع خطواتها المترددة أمام الباب المغلق :

ــ هل كنت تصدق أن يحدث هذا اللقاء العجيب بين خالد وليلى ؟!

ــ لولا أننى متأكد من صدق خالد .. لما صدقت ما قاله فى خطاباته ومكالماته التليفونية معنا .. وقلت إنه دبر اللقاء عن عمد وأخفاه عنا كى يبدو بمظهر الصدفة البحتة !!

ــ آه لو علمت سهام ؟!

ــ هل سيواصل اخفاء هذا الموضوع عنها ؟!

ــ ليس من الحكمة أن يضيف هموما جديدة على كاهلها .. وهى التى

تعيش موزعة البال والخاطر بين خوفها عليه وبين رعايتها لابنيها وعملها فى عيادة أبيها !!

— لكننى عندما رأيت ليلى اليوم لأول مرة .. التمست العذر كل العذر لخالد ! إنها مخلوقة مغناطيسية شاعرية يمكن أن تجذب كل من يقترب منها .

لكزته صفاء بمرفقها فى دعابة :

— ماذا تقصد يا سعدون ؟!

ابتسم لأول مرة منذ قدومه إلى المستشفى :

— وتنقدين سهام على غيرتها ؟!

ابتسمت بدورها :

— سؤالى لا يعنى الغيرة وانما مجرد الاستفهام !

— أقصد أنها امرأة من النوع الذى يثير من المشاعر والأحاسيس ما يسمو فوق مستويات الغرائز الحسية المعتادة ! وأعتقد أن هذا هو السبب فى عدم احساس خالد بالحرج أو الحساسية أو الذنب فى مواجهة زوجها الذى يبدو أنه يثق فيها ثقة عمياء !

— عنده حق ! فليلى امرأة من ذهب .. كلما ألقيتها فى النار ازدادت صفاء ونقاء وتألقا !

— وهذا ما يجب على سهام أن تدركه ! فهى معنى جميل وقيمة إنسانية رائعة نحن فى أشد الحاجة إليها فى هذا الزمن العصيب !

كانا منهمكين فى الحوار لدرجة أنهما لم يلحظا الأطباء والممرضين الذين يطوون الممر بخطوات لاهثة . فقد كانت حالة الطوارىء على

أشدها ، خاصة بعد المعركة الأخيرة . لكن خروج طبيب شاب من غرفة العمليات أخرجهما على الفور من حوار الخواطر والهواجس فأسرعت إليه صفاء سائلة :

ـــ كيف الحال يا دكتور ؟!

رسم ابتسامة على وجهه الجاد وقال فى اقتضاب :

ـــ لن تقل العملية عن عشر ساعات !

ثم مضى ليدخل غرفة أخرى بخطوات عسكرية ! سرى القلق فى قلب صفاء لتصيب عدواه قلب سعدون . قلق من نوع شرس مخيف إذ أن القلق الآخر أصبح هواء يتنفسونه منذ بداية الحرب !

شعرت صفاء بساقيها تئنان فى وقفتها فسارت إلى استراحة مقابلة لباب الغرفة لتجلس على أول مقعد وفى أعقابها سعدون.

ترددت العيون الواجفة بين باب الغرفة المغلقة والسماء الصافية المطلة من النافذة المفتوحة على الجانب الآخر من ركن الاستراحة فى حين هبطت حمامة بيضاء على قاعدة النافذة وفى منقارها فرع من النجيل الأخضر . تمنت صفاء أن تظل الحمامة فى وقفتها على القاعدة حتى تنتهى العملية لكن سرعان ما طارت لتعشش الوحشة فى قلبها !

(٨)

جرت عيناها على سطور الخطاب وما بينها وهى لاتكاد تصدق شيئا مما تقرأه !! هل يعقل كل هذا ؟ هل كان الأمر مجرد صدفة غاية فى العجب أم أنه كان مدبرا فى السر ومنذ البداية كما أوحت إليها ظنونها ؟! وبرغم أنه وضع الحقيقة عارية دون أية مداراة أو زخرفة ، فقد تراجعت فى داخلها المشاعر القديمة الممضة التى طالما نهشتها بأنيابها المدببة وجرحتها بأظافرها الحادة ! هل يرجع ذلك إلى أن أملها كله قد تمثل فى عودته سالما بصرف النظر عن أى اعتبار آخر ؟! وأنه فى مواجهة الخطر الداهم فإن كل المشاعر الضيقة الأفق سرعان ما تنقشع كالسحب تحت لهيب الشمس ؟! وهل مشاعرها كانت ضيقة الأفق حقا أم كانت حقيقة واقعة والآن أصبحت تراها فى ضوء جديد ؟!

أحدث الخطاب فى أعماقها دوامة لا تستطيع الخروج منها وإن كانت تدعى التماسك والابتسام كلما التقت نظراتها بنظرات دعاء وأيمن ! لكن ها هى الآن قد عجزت عن النوم فأضاءت نور الأباجورة لتقرأه للمرة العشرين أو الثلاثين ،لا تدرى !! هل يمكن أن يكون خالد قد اخترع هذه القصة العجيبة على سبيل اختبار غيرتها على البعد ، أو على سبيل القضاء التام على هذه الغيرة بوضعها فى مواجهة الحقيقة العارية وإن كانت فى واقع الأمر حقيقة متخيلة ؟! لكنه حساس ومرهف ولا يحب أن

يجرحها أو يحملها أكثر مما تحتمل ! لا بد أنه لم يحتمل الكتمان فأراد أن يفضى بما يعتمل داخله لها ! أى أنه يثق فى تقديرها للأمور و لم يعد هناك ما يستدعى اثارة الحساسيات التى يمكن أن تتحول إلى انفجارات فى لمح البصر !

كانت سهام تنظر فى حنان بالغ وحنين قاتل إلى المكان الشاغر إلى جوارها على الفراش ! متى تعود يا خالد ؟! على أية حال فلتحمد الله الذى حافظ عليه وسط هذه الحرب التى تسعى لتدمير كل من يرفع لواء الكرامة والإصرار على حماية الوطن ! بل ولا تزال خطاباته منتظمة إلى حد ما برغم الظروف الصعبة التى يمر بها ! لو كان يكرهها ويعشق ليلى كما كانت تظن ، هل كان من الممكن أن يواصل خطاباته إليها ؟! إن التجربة التى تمر بها صعبة بل ومريدة للغاية ، ومع ذلك أوشكت على الإمساك — بمعدنها الحقيقى داخل بوتقة التجربة المتفجرة بشتى المشاعر والأفكار المنصهرة!

ظلت طوال حياتها وحيدة أبيها وطفلته المدللة ! تربت على أن كل من حولها وما حولها ملك لها وبالتالى رهن اشارتها ودائر فى فلكها ! والمأساة كل المأساة يوم كانت تشعر بانصراف الاهتمام عنها خاصة من أقرب المقربين إليها . كان صوابها يطيش ، وتفقد السيطرة على انطلاق شطحاتها فى اتجاهات ومسارات لا يمكن أن تتنبأ بها ! وكثيرا ما كانت تندم أشد الندم ، وتلتهب نفسها بسياطه ولسعاته ، لكن سرعان ما كانت تطويها الدائرة الجهنمية لتبدأ من جديد !

شعرت سهام بحركة فى غرفة دعاء فمدت يدها وأطفأت نور

الأباجورة حتى لا تثير قلقها عليها ! حتى دعاء أنضجتها التجربة وأصبحت تتصرف كما لو كانت أختها الصغيرة وليست ابنتها ! ساد الظلام الغرفة لكن سطور الخطاب أنارتها وكأنها لا تزال تقرأها ما هذه الراحة النفسية الغريبة التى تغرق شواطئها والتى لم تتذوقها من قبل ؟! هل ترجع إلى أن ليلى متزوجة من أحد أبطال الحرب وأم لطفلين جميلين بحيث لم يتبق فى قلبها مكانا لحب آخر ؟! يكفيها حب الوطن الذى دفع بها إلى المرابطة فى شرنقة النار التخفيف من ويلات المصابين ، ولا يعقل أن تكون قد اتفقت مع خالد للقاء وسط ألسنة النيران !! إن الإنسان الذى لا يرى سوى نفسه لا يضحى بها من أجل النفوس الأخرى .

ابتسمت سهام وهى تحتضن الوسادة بعنف فى الفراش الخالى البارد برودة يناير ! فهى أيضا تصطلى بنيران الحرب العراقية الإيرانية ولذلك فهى تشارك ليلى بعض بطولتها ! إنها تحارب فى جبهة دعاء وأيمن ، وجبهة عملها بعيادة أبيها ، وجبهة نفسها بكل دهاليزها وكهوفها التى لم يغمر الضياء أركانها العميقة ومنحنياتها الملتوية بعد ، برغم البصيص الذى شرع فى التسلل إليها من حين لآخر !

كثيرا ما كان خالد يقول لها إن المعرفة الحقيقية تبدأ بمقولة سقراط الشهيرة : إعرف نفسك ، لكنها لم تلتفت أبداً إلى مثل تلك الأقوال لوقوعها فى قاع دوامة نفسها المظلمة ! غريب أمر هذا الإنسان فى هذه الدنيا ! لا يعرف قيمة الشىء إلا إذا فقده ! فهى طبيبة وتعلم أن الإنسان الذى يعانى من ألم ما فى جسده يظن أن كل البشر الذين لا يعانون من

مثل هذا الألم ، يرفلون فى حلل السعادة ، لكنه هو نفسه قد يسعد للحظات عابرة عند شفائه من الألم ثم سرعان ما تتبخر هذه السعادة ليحل محلها التذمر والحنق والضيق بالحياة !

وهى الآن تعرف قيمة خالد جيدا ، بل وتنظر إلى حياتها معه على أنها أحلام وأطياف سعيدة برغم وعورتها ! والآن فقط بدأت تدرك أن الشعور بالغيرة يمكن أن يكون عنيفا وحادا بل ومدمراً للثبات الانفعالى لدى الفرد . وغالبا فإن الفرد الغيور لا يعترف بغيرته لأن الغيرة ترتبط بالشعور بالنقص والعجز والضعف فى مواجهة الآخرين الذين يتحركون فى المجتمع بقوة وتلقائية دون خوف من أحد يمكن أن يفرض سطوته عليهم . وكانت سهام تعتقد أن الغيرة سلاح تشهره فى وجه كل من تسول له نفسه تهديد ممتلكاتها ، لكنها تدرك الآن أنها شعور مركب ومعقد وليس بسيطا كما كانت تتصور . فالإنسان لا يشعر بالغيرة إلا إذا كان يشعر ، بوعى أو بلا وعى ، بعدم الثقة فى النفس مع الرغبة فى الاحتفاظ بما يملكه فى مواجهة أطماع الآخرين فيه !

بدأت فى الفترة الأخيرة قراءات فى كتب علم النفس التى تعالج ظاهرة الغيرة . فلا يعقل أن تخوض ليلى ومعها خالد نيران حرب حقيقيـة لا هوادة فيها فى حين تظل هى عاجزة عن خوض معركتها مع نفسها ! تعلمت من كتاب فى مكتبة خالد التى لم تعرها التفاتا من قبل أن كل حالة غيرة تتضمن درجة من ضعف ثقة الإنسان من حيث مركزه فى البيئة . ففى حالة غيرة الأزواج ، وجدت أنه إذا كان أحد الزوجين على ثقة تامة بالآخر ، فإن احتمال ظهور الغيرة يصبح ضعيفا ! أى أن الغيرة لا تعنى

عدم ثقتها فى نفسها فحسب بل وفى خالد أيضا ! وهى بذلك تجرحه دون أن تدرى !

علمتها أيضا التجربة والكتب التى شرعت فى التهامها أن أقصى أنواع الغيرة هو ما ينشأ عن شعور بالنقص مصحوب بشعور بعدم إمكان التغلب عليه ، كنقص فى القدرة الحسية أو العقلية أو الفكرية أو الثقافية أو الوجدانية . ولذلك تجعلها الغيرة معرضة للشعور بالنقص ، كما أن هذا الشعور يعرضها بشدة لمزيد من الشعور بالغيرة . ولذلك وقعت بين شقى الرحى : الشعور بالغيرة والشعور بالنقص ، أى فى دائرة مفرغة أو سلسلة متصلة الحلقات ، تؤثر كل حلقة منها فى الأخرى وهكذا إلى ما لانهاية إذا لم تتسلح بالإرادة لكبح جماحها ! ولعل أهم أسباب الغيرة أن يشعر الإنسان بحقه فى امتياز معين حصل عليه بالفعل ، ثم يفقده كله ، أو يفقد جزءاً منه ، ليحصل عليه شخص آخر !

وكان خالد هو هذا الامتياز فى نظرها ! وليلى هى الشخص الآخر الذى حصل على جزء منه أو ربما كله فى مرحلة من المراحل التى كانت فيها الغيرة شديدة الوطأة عليها ! كانت تسلك بعصبية وتوتر وشك وقلق وغضب وضيق بالحياة نفسها فى حين كانت ليلى تلقائية وطبيعية ومنطلقة ومنشرحة للغاية ! وكانت تقرب الناس وتجذبهم إليها طبقا لمسافات تحددها هى ! كان زمام المبادرة دائما فى يدها ، أما تصرفات سهام فكانت دائما نتائج لمبادرات الآخرين ، وهكذا فقدت القدرة على إدارة دفة سفينتها وسط بحر الحياة المتلاطم الهائج بلا رحمة ! فى حين ألقت ليلى بنفسها فى خضم دواماته لتصارعها بإرادة من حديد قد لا تتوافر

لرجال كثيرين ! أى أنها انطلقت من عصر الحريم إلى آفاق العصر الحديث كشهاب بهر عيون الرجال قبل النساء وأنار لهم حقائق خافية عليهم ، خاصة الذين بلغوا مرحلة عالية من النضج الفكرى من أمثال خالد ، أما سهام فلا تزال سجينة عصر الحريم الذى يحصر كيان المرأة فى قدرتها فقط على الاستئثار برجلها ، أما حياتها وعقلها وفكرها وقدرتها على تحقيق ذاتها فكلها أمور لا تشغل بالها ! ولذلك تصبح تحت رحمة الرجل . فإذا تفضل ومنحها الحب والاهتمام طارت إلى سابع سماء من سموات السعادة والنشوة ، وإذا شغلته هموم الحياة عنها ، سواء بوعى أو بلا وعى ، هبطت إلى سابع طبقة من طبقات الجحيم وهكذا فهى تنقل محور ارتكازها من داخلها إلى يد الرجل دون أن تدرى ثم تندب حظها !

لم تسأم سهام من الغوص فى أعماق نفسها فى الفترة الأخيرة وإحساس بالخجل والحرج يغمرها بتساؤل ملح ! إذ كيف وهى الطبيبة التى يفترض فيها قدرتها على علاج المرضى عاجزة عن علاج نفسها ؟! إنها تتذكر الآن كلمات ليلى منذ أكثر من عشرين عاما أيام التلمذة فى كلية الطب حين كانت تردد أن طبيب الجسم لابد أن يكون واعيا بالنفس ، وطبيب النفس لابد أن يكون دارسا للجسم ، إذ أنه من المستحيل الفصل بين هذا وذاك ! كذلك تتذكر كلمات خالد النارية التى طالما رددها فى أثناء انفجاراتها التقليدية :

ــ فليذهب الطب إلى الجحيم إذا ظل صاحبه قاصرا فى إحساسه وفكره دون أية استفادة عملية به !!

أعلنت عقارب المنبه المضيئة إلى جوارها الساعة الثانية صباحا ، فحاولت أن تتناوم لعل النوم الحقيقى يظللها بجناحه حتى تستيقظ فى الصباح قادرة على حمل مسئوليات اليوم الجديد ، والتى تبدأ بتوصيل دعاء وأيمن إلى المدرسة . دفنت رأسها تحت الوسادة لكن سؤالا ممضا طاردها فى الحاح قاتل :

ـــ الآن أصبحت قادرة على تشخيص الحالة ونوعية علاجها .. لكن هل يبدو التطبيق العملى فى سهولة المعرفة النظرية ؟!

(٩)

كان وداعا مؤثرا انهمرت فيه الدموع أنهاراً . فقد تماثل عدنان للشفاء و لم يتبق له فى المستشفى سوى أسبوعين أو ثلاثة على أكثر تقدير كى يبل تماما ويعود إلى الجبهة التى أصر على الاستمرار فيها إلى أن يتحقق النصر أو ينال الشهادة . و لم تفلح محاولات القادة فى اقناعه بعمل إدارى رفيع فى القيادة العسكرية فى بغداد . فهو — على حد قوله — بين جنوده ورفاق السلاح ، أب بين أبنائه وأخ بين أخوته ، فكيف يهجر الإنسان أسرة بهذه الروعة الآسرة ؟!

كذلك أصر عدنان على عودة ليلى وخالد إلى البصرة الحبيبة وهو يؤكد لهما :

— البصرة فى حاجة أشد إليكما منى !!

ابتسمت ليلى وهى تحتضن كلا من زهير ورشيد بيمناها ويسراها :

— يبدو أنك لم تعد فى حاجة الىّ !!

داعب عدنان وجنة زهير ثم ربت على يدها :

— كفاك دلالا !! أنت تعرفين قيمتك عندى جيدا !! والآن أنا فى أيد أمينة هنا !! كما أننى سألحق بك فى البصرة بعد أسبوعين أو ثلاثة !! أتظنين أننا يمكن أن نترك الفاو فى أيدى الفرس أكثر من هذا ؟!

لم يخف عن عينى خالد تشبث ليلى الشديد بولديها فقال لعدنان :

— سأعود أنا إلى البصرة بمفردى .. على أن تبقى ليلى لرعايتك والعودة معك !!

لم يتنازل عن إصراره وكأنه يكاد يصدر أوامره إلى جنوده :

— هنا بمجرد إشارة من يدى .. تلبى جميع طلباتى !! أما فى البصرة فنسبة عدد المصابين أضعاف أضعاف نسبة عدد الأطباء !

ابتسم خالد مؤديا التحية العسكرية :

— سأقوم بعملى وبعمل ليلى فى الوقت نفسه !

لم يشاركه دعابته بل كان على وشك ان ينفض الغطاء من على ركبتيه وهو جالس القرفصاء فى فراشه :

— كيف يهدأ لى ضمير وأنا هنا منعم بين الزوجة والاولاد والصديق والزملاء الذين لا يغفلون عنى لحظة .. فى حين يخوض أخوتى وأبنائى معارك المصير !! أليس من أبسط الواجبات أن نزيد عدد الأطباء هناك ؟!

بدت بوادر الاستسلام على وجه ليلى :

— منذ متى استطعت أن أغير رأيك ؟!

ومضت عيناه بحب شديد :

— أنسيت أنك غيرت رأيى فى المرأة تماما ؟!

ثم قال لخالد :

— نشأت فى أسرة تعتقد أن لا حياة للمرأة خارج جدران البيت !

علقت ليلى :

— لا أحد يستطيع أن يوقف دوران عجلة التطور !!

تذكر خالد شيئا كان يتمنى أن يسمع له تفسيرا منذ مدة :

ـــ لا حظت أن نسبة الممجندات والعاملات فى القوات المسلحة نسبة كبيرة لم أتخيلها على الاطلاق !!

انفتحت شهية ليلى للأحاديث التى افتقدتها منذ المعركة الأخيرة :

ـــ ورثت المرأة العراقية كما ورث المجتمع العراق ككل .. كل سلبيات ومشاكل العهود التى سبقت الثورة .. لكن المرأة كما يقول الرئيس القائد صدام حسين .. عانت اضطهادا مزدوجا .. عانت اضطهاد الأنظمة الرجعية السالفة .. واضطهاد القوى الأجنبية التى تحكمت بمصير العراق عقودا من السنين من جهة ..واضطهاد القيم والعادات والتقاليد المتخلفة التى زرعتها وعملت على تكريسها قوى الاستعمار والامبريالية والرجعية وكل أعداء التقدم من جهة ثانية ، ففرض عليها الجهل والأمية .. وحرمت من أبسط حقوقها .. وأعيدت إلى زمن الجوارى والعبيد!

انتهز عدنان فرصة التقاطها لأنفاسها ليقول :

ـــ والغريب أن كثيرين منا .. وأنا كنت واحدا منهم .. كانو يظنون أن وضع المرأة بهذا الشكل أمر طبيعى للغاية وليس فى حاجة إلى مجرد تساؤل !!

واصلت ليلى زحفها الفكرى الذى تعشقه :

ـــ وظل هذا وضع المرأة حتى انتصرت ثورة السابع عشر الثلاثين من تموز ١٩٦٨ بقيادة حزب البعث العربى الاشتراكى وقائده الرئيس صدام حسين .. إذ فتحت أمام المرأة العراقية كل أبواب التقدم والرق ..

علق خالد :

ـــ وبذلك استرد المجتمع العراق نصفه الذى ضاع منه !!

تدفق الحماس مع كلمات ليلى :

ــ صدرت القوانين التى تساوى المرأة بالرجل .. وفتحت أمامها أبواب التعليم حتى مراحله العليا .. وشملتها بالتعليم الالزامى والمجانى .. ومنحتها حق العمل السياسى والاجتماعى .. فانتسبت للأحزاب والجمعيات والمنظمات النقابية .. ومنحت حق التصويت والترشيح للهيئات القيادية فى المجلس الوطنى الذى احتلت فيه تسعة عشر مقعدا !

أضاف عدنان :

ــ وطبعا مع مراعاة ظروفها كأم ترعى أبنائها ! وكذلك عدل قانون الأحوال الشخصية أكثر من مرة لصالح المرأة وحقوقها فى طلب التفريق وحضانة الأطفال والميراث إلى آخره ! كما ألغت الثورة كافة القوانين التى تمتهن كرامة المرأة وتحط من شأنها !

استأنفت ليلى :

ــ واحتلت أعلى الوظائف فى الدولة .. فأصبحت مديرا عاما .. ووزيرا .. كما دخلت لأول مرة إلى القوات المسلحة .. فأصبحت ضابطة تحمل الرتب العسكرية ..

تساءل خالد :

ــ وأعتقد أن هذه المساواة امتدت لتشمل الجانب الاقتصادى ؟

أجابته ليلى:

ــ ساوت القوانين المرأة بالرجل فى الأجور وفى الترفيع والتقاعد .. بل ومنحتها أفضلية خاصة باعفائها عن العمل الليلى وعن العمل المرهق

بدنيا . ومنحتها إجازة الولادة وإجازة الأمومة براتب كامل ..
وقلصت فترة الخدمة بالنسبة للحقوق التقاعدية !

أضاف عدنان :

ـــ وهذا يعنى انهاء اعتماد المرأة على الرجل فى اعالتها ومعيشتها !

واصلت ليلى تدفقها الحماسى :

ـــ وبذلك حررها اقتصاديا وأنقذها من التحكم بمصيرها .. وعزز
وضعها النفسى والمعنوى لتؤدى دورها الفعال فى المجتمع !

علق عدنان :

ـــ ولذلك فإن العمل الذى تقوم به ليلى ليس استثناء من القاعدة
السائدة الآن !

أضافت ليلى :

ـــ وانخرطت أعداد كبيرة من العراقيات فى تشكيلات الجيش الشعبى
وشكلت القواعد والقواطع .. وأثبتن كفاءة عالية فى استيعاب التدريب
على استخدام السلاح .. وفى تطبيق الضبط العسكرى المطلوب !

قال خالد :

ـــ لاحظت أنا أيضا وجود نساء البصرة فى قواطع الجيش الشعبى
للتدريب على السلاح للدفاع عن البصرة !

شددت ليلى من التفاف ذراعيها حول ولديها :

ـــ حدث هذا حين دنس الفرس أرض الفاو الطاهرة .. كذلك يوم
تجرأ الفرس على تدنيس مياه الأهواز فى الجنوب .. هبت بنات الأهواز إلى
جوار أبنائه من ضباط وجنود وفلاحين وصيادين لمواجهة الغزاة ..

وحملن السلاح وأطلقن النار وشاركن فى سحق العدو .

ابتسم عدنان قائلا لخالد فى محاولة لمشاكسة زوجته :

ـــ توقع منها هذا دائما ! لن ترد على أى سؤال لك إلا بمحاضرة كاملة !

ضحكت فى سعادة :

ـــ وشاركت أنت فى المحاضرة بنصيب وافر !

عادت الجدية لتفترش وجه عدنان :

ـــ لن أضيع من وقتكما أكثر من هذا !! البصرة الحبيبة فى انتظاركما !!

سألته فى اقتضاب :

ـــ ألا تزال مصراً ؟!

ـــ نعم !

ـــ أمرك !

ثم ضاعفت من احتواء ولديها فى حين قال رشيد الذى يشبّه أمه فى بياض بشرتها وسواد عينيها :

ـــ نحن نفتقدك كثيرا يا ماما !

قبل أن ترد عليه بقبلة قال زهير بنبراته الطفولية التى تعشقها :

ـــ أريد أن أذهب معك !

انهالت عليه بقبلات حارة مع دموع فى عينيها :

ـــ أوشكت الحرب على نهايتها .. وسرعان ما سيلتئم شملنا !

لوح بيده الصغيرة فى سأم :

ـــ أنت تقولين دائما هذا فى الكلام فى التليفون !!

ثم اضاف رشيد :

ــ ثم تسافرين أنت وبابا !! ونعيش مع جدتنا مرة أخرى !

بحثت عن كلمات مناسبة فلم تجد سوى الدموع تتساقط على وجنتيها فأشاحت بوجهها حتى لا يلمحها أحد ، ومع ذلك لم يخف تأثرها العميق عليهم . حاول عدنان أن يحسم الموقف بكلمات صارمة :

ــ بعد انتصاراتنا الأخيرة لم تتبق لدينا معركة رئيسية سوى الفاو .. بعدها ستنتهى الحرب !

رفع رشيد كفيه صوب السماء :

ــ يا رب !

أمسكت ليلى بكفيه الصغيرتين ودفنت فيهما وجهها ودموعها بقبلات سمع رنينها . قال عدنان بصوت جهورى صارم :

ــ لن يؤدى التباطؤ إلا إلى المزيد من الاجهاد العصبى والتوتر النفسى !! ولا تنسى أننى فى حاجة إلى أعصابى لمواصلة القتال !

مسحت دموعها بحسم جديد :

ــ وهو كذلك !

ثم نهضت تمسك كلا من رشيد وزهير بأصابع متقلصة ! نهض خالد وأخذ منها الطفلين . انهالت على زوجها فى جلسته فى الفراش بقبلات وأحضان ودموع لم يملك معها خالد سوى أن يستدير حتى لا يجهش بالبكاء هو الآخر وحتى لا ينهار الطفلان اللذان بكيا فى صمت رهيب وهما يتابعان من طرف خفى الوداع المؤثر بين أروع أبوين على وجه الأرض ! فقد كتب حتى على القلوب الصغيرة أن تدفع ضريبة الدفاع عن أرض الوطن .

(١٠)

كانت شمس البصرة تشع على الخليج بالضياء والدفء القادم مع شهر إبريل حين عاد عدنان إلى رفاقه وأخوته فى السلاح بعد أن مر على زوجته فى المستشفى الميدانى الواقع فى عمق البصرة للزيارة والاطمئنان. كان فى قمة سعادته ونشوته بالحشد المهيأ لمعركة النصر . ففى المرحلة السابقة لم يكن لدى القوات الرابضة على خط النار قدرة للقتال على أكثر من فيلق واحد وبمستوى واحد . أما الآن فيمكن القتال على جبهة فيلقين وثلاثة وأربعة وبنفس القوة لأن حجم الجيش وليس نوعيته فقط قد تطور بعد معركة الفاو بحيث أصبح متفوقا على العدو فى الإمكانات وقدرة الحشد من خلال قوات مجهزة مدربة على طول الجبهة وعلى أتم الاستعداد لمعالجة الموقف فى أكثر من قاطع وفى آن واحد . ومن هنا كانت الخسائر الفادحة التى أوقعتها القوات العراقية بقوات الغزو الفارسى فى المعركة الأخيرة .

كان عدنان ضمن القادة الذين أحيطوا بالأمر الذى صدر فى اجتماع السادس عشر من نيسان ١٩٨٨ برياسة القائد الرئيس صدام حسين ، لتحديد يوم الهجوم إيذانا بتحرير الفاو . وكانت المهمة قد ألقيت على عاتق قوات الحرس الجمهورى والفيلق السابع ، وسميت بعمليات « رمضان مبارك » . وفى يوم السابع عشر من نيسان اقتحمت قوات الحرس الجمهورى دفاعات العدو فى المملحة وحطمت خطوطه الدفاعية

بعد أن دمرت قواته تدميرا كاملا و لم يفلت من أفراده إلا من ولى هاربا أو وقع فى الأسر :

وفى الوقت نفسه أى فى تمام الساعة السادسة والنصف من صباح ذلك اليوم كان عدنان أحد قادة قوات الفيلق السابع والقوات المتجحفلة معه التى اقتحمت مواقع العدو بين الحافة الغربية لشط العرب داخل ضمن حدود المسئولية مع قوات الحرس الجمهورى . وكانت الآلاف من قوات العدو لقمة سائغة للفيلق السابع ، فتساقط ما بين قتيل أو جريح أو أسير .

كان إحساس عدنان أنه أحد العازفين الماهرين فى أوركسترا بديع يقوده المايسترو المهيب صدام حسين . وكانت أصداء السيمفونية الباهرة تسجلها مدونة التاريخ ليسمعها العالم أجمع . كان التعاون والتنسيق حتى فى التفاصيل الدقيقة فى قمة الكمال بين قوات الحرس الجمهورى والفيلق السابع وبين القطعات البرية والجوية والبحرية وبين كل هذا ومختلف الصنوف والأسلحة فى القوات المسلحة .

كان عدنان يتلقى الأوامر من الفريق الركن ماهر عبد الرشيد قائد عمليات قوات الفيلق السابع ، فيسرى الحماس من القمة إلى القاعدة كمس الكهرباء الذى يحرك آلة الحرب فى تناغم بديع . فالقوات الجوية تقدم الإسناد الكفء لقوات تحرير أرض الوطن من خلال تنفيذ مائة وسبع وثلاثين مهمة قتالية . وفرسان السميتات يشاركون فى الإسناد من خلال تنفيذهم مائة واحدى وثمانين طلعة قتالية . كان عنصر المباغتة قد أرعب العدو ودفعه إلى التخبط ، فلم يكن يتصور طبيعة العملية

وضخامتها وتوقيتها مما أدى به إلى وقوعه فى قاع الذهول والتخبط فى إصدار القرارات ، بعد أن دمرت القوات المسلحة العراقية تدميرا شاملا كل قطعات العدو فى مثلث الفاو ، و لم يبق منها إلا مجاميع صغيرة وأفراد مبثوثون بصورة عشوائية مقطوعى الصلة بمقراتهم فى بعض ما تبقى من ساحة العمليات . و لم يتبق لهذه المجاميع سوى واحد من ثلاثة خيارات : الموت أو الهزيمة العاجلة أو الوقوع فى الأسر :

وكان عدنان على رأس القوات التى قامت بعمليات التمشيط النهائية . وبرغم نشاط الجرافات العراقية فى ردم ساحة المعركة التى حسمت نهائيا ، استطاع أن يرى الآثار المروعة لهذه المعارك الرهيبة التى انطلقت فى فجر السابع عشر من ابريل فى عملية رمضان مبارك التى لم تدم أكثر من اثنا وثلاثين ساعة . كانت التحصينات الإيرانية الضخمة الموجودة فى شبه جزيرة ألفاو إما متهدمة أو خاوية على عروشها أو مدمرة تماما بعد اقتحام العراقيين لها ووسط أطلال أعنف المعارك رأى عدنان الدبابات الإيرانية مقلوبة وبها بقايا حريق وبعضها غارق حتى المنتصف فى وحل الرمال ، ومجنزراتها مقلوعة ، وحديدها محروق أو منصهر ، والغبار بلون الصحراء يعلوها تحت وطأة الشمس الحارقة ورائحة المستنقعات النتنة .

رأى عدنان فى طريقه بين أرجاء الفاو قوافل من الشاحنات الكبرى تحمل دبابات وعربات نقل تخلى عنها العدو على مبعدة من أبنية سكنية ومكاتب تغطى بقماش خيم ويرفرف عليها علم العراق وصور الرئيس صدام حسين . قال عدنان لنفسه وهو يمتطى ظهر مركبته الحربية :

— كانت إيران تظن أن الخمسين ألف جندى الذين حشدتهم فى شبه

جزيرة الفاو الاستراتيجية سيكونون رأس الحربة التى ستشق لهم الطريق إلى قلب العراق .. لكن لم يخطر ببالها ولا فى أشد الكوابيس وطأة أن يصبح جنودها البؤساء وقودا لآلة الحرب العراقية . فقد تحمل الفرس خسائر عالية جدا مقابل الاحتفاظ بالفاو تحت الاحتلال..لكنها كانت عبارة عن فخ لهم .. فبعد أن احتلوه لم نترك لهم سوى منفذ واحد لتموين قواتهم المرابطة فى الفاو وبالتالى كنا نسدد ضرباتنا لقوافل التموين الإيرانيـة مكبدين إياها الخسائر الفادحة ! لقد استطعنا بهجوم « رمضان مبارك » تحقيق مفاجأة الزمان والمكان معا حيث نجحنا فى استغلال تزايد الاهتمام الإقليمى والدولى بتصاعد حرب المدن وتوجع إيران من وابل الصواريخ العراقية كى ننفذ خطة تصفية هذا الجيب الإيرانى فى شبه جزيرة الفاو فى أقل من يوم ونصف يوم برغم أن قائد الفيلق السابع قدر للمعركة أن تستمر من أربعة إلى خمسة أيام !

كان حديث عدنان لنفسه ذا شجون وهو يمسح بعينيه من عربته أطلال المعركة الأسطورية ! تمنى أن تكون فى صحبته ليلى وزهير ورشيد حتى يروا بعيونهم صفحة من أمجد صفحات الوطن وأخلدها . صفحة صورت كيف تحركت القوات العراقية فى الساعات الأولى لهجومها على شكل كماشة من الشمال والجنوب وحررت ميناء نفط الفاو ثم اندفعت صوب مدينة الفاو لتحريرها . وكان الفرس قد منوا النفس فى استخدام هذا المنفذ الوحيد المباشر للعراق على مياه الخليج كرهان فى يدهم !والآن يشير الجنود العراقيون لكل المارة من القادة والصحفيين الأجانب بأصابعهم بعلامة النصر .

كان الطريق بطول ثلاثين كيلومترا على رقعة الأرض الضيقة المؤدية إلى مثلث الفاو محاطا على جانبيه بجثث جنود إيرانيين برغم أن الجرارات كانت تلهث لطمر كل أثر للإيرانيين فى الفاو ، وتجرف التراب على عشرات الجثث يوم الثلاثاء التالى ليوم الأحد الذى بدأت فيه المعركة لتنتهى فى منتصف الاثنين . لم يكن هناك أى أثر لجندى إيرانى حى ،أما من وقع منهم فى الأسر فقد وضعوا مؤقتا فى المقر العام للجيش العراقى فى مثلث الفاو . وعندما حاصر المراسلون الصحفيون الأجانب الذيـن يتفقدون المنطقة سيارة عدنان بالأسئلة قال لهم بفخر وإنجليزية طلقة :

— لم يعد يوجد الآن أى جندى معادى فى منطقة المثلث . وقد أباد جنودنا البواسل الغزاة الإيرانيين تماما . ولم يتمكن سوى القليل من الإفلات بالسباحة فى مياه شط العرب الباردة . لقد حرر الفيلق السابع منطقة غربى شط العرب فى غضون اثنا وثلاثين ساعة وهى المدة التى استغرقهاالهجوم كله ، والتى تحولت فيها المنطقة إلى زلازل وبراكين وأعاصير وصواعق لا تبقى ولا تذر ! كان ايقاع الهجوم سريعا عنيفا مما لم يتح للعدو أية فرصة .. لا للتفكير أو حتى للهرب !

وردا على سؤال مغرض من صحفى لم يتبين جنسيته قال :

— القوات العراقية لم تستعمل جزيرة بوبيان الكويتية القريبة كنقطة لانطلاق الهجوم من الجنوب .. إن هذا ادعاء باطل تماما !

وردا على سؤال حول دور السلاح الجوى العراقى قال :

— قام السلاح الجوى العراقى مع بداية المعركة يوم الأحد بتدمير الجسور التى ربطت الفاو بالضفة الإيرانية على شط العرب .. ونحن

لا نتوقع أية ضربة إيرانية مضادة فى المستقبل القريب! إن ابن الفلاح فى مدينة مشهد الإيرانية والذى فى مقدور الفرس تجنيده سوف لا يتوصل بسهولة إلى مستوى القدرة القتالية والإدراك العسكرى للجنود العراقيين . ففى الفاو لم يمن الجيش الإيرانى بالهزيمة فحسب ، وإنما منى بها أيضا المفهوم الفارسى للدولة الإلهية !

سأله صحفى عما إذا كان نصر الفاو مفاجأة للعراقيين أنفسهم فأجاب عدنان بثقة بالغة :

ــ بالطبع لا .. فقد جعلت الصواريخ والقنابل العراقية الحياة الطبيعية فى إيران مستحيلة .. وقد هرب الكثير من سكان طهران إلى الجبال المجاورة تحت وطأة طاقة النيران العراقية غير المحدودة . ونتيجة لحرب الاستنزاف الدفاعية لسنوات طوال ، نال الجيش العراقى قدرة فائقة على الاستراتيجية والتكتيك وروحا معنوية مرتفعة إلى عنان السماء . وقد بذل العراقيون كل طاقاتهم للوصول إلى أعلى مستوى التدريب العسكرى .. كانت القطعات العسكرية كما قال الرئيس القائد صدام حسين تمارس تمارينها على ميادين مشابهة لواجباتها فى الفاو طبق الأصل . فتعمل كما لو كانت فى الفاو وكل قطعة حسب الواجب الذى تكلف به . وكان التدريب يتم فى أبرد لحظات الليل والنهار فى الشتاء وفى الجو الممطر وفى الأرض الموحلة .. وكذلك فى أشد الأوقات حرارة فى الصيف !

فجأة لمح عدنان سعدون قادما يلهث ليلحق بركب الصحفيين الملتفين حول عدنان الذى هبط من على سلم السيارة وشق طريقه وسطهم ليستقبله بالأحضان سائلا إياه :

ـــ منذ متى وأنت فى الفاو ؟!

ـــ وصلت صباح اليوم موفدا من جريدة « الثورة » التى أعمل بها !!

كان المراسلون والصحفيون الأجانب يتابعون المشهد باسمين حتى قال أحدهم مداعبا :

ـــ تكلما بالإنجليزية حتى نلتقط ما يدور !

أشاح عدنان بذراعه لهم :

ـــ ليس عندى أكثر مما قلته .. يمكنكم التجول فى الفاو لتشاهدوا بأنفسكم المنظمات والاتحادات الجماهيرية والمهنية التى جاءت لتقبل ترابها الطاهر .. وتعاينوا على الطبيعة الإنجاز القتالى البطولى الذى حققه رجال الحرس الجمهورى وأبطال الفيلق السابع وبقايا تحصينات العدو المنهارة .. كما يمكنكم الذهاب إلى البصرة مدينة المدن لمشاهدة معرض الأسلحة والمعدات والأعتدة التى غنمتها قوات الحرس الجمهورى وتشكيلات الفيلق السابع فى عمليات « رمضان مبارك » !

علق صحفى بلحية بيضاء شهباء :

ـــ واضح أن انتصار الفاو كان نتيجة عملية ملموسة لنجاح استراتيجية الرئيس صدام حسين !

ـــ هذه بديهية لا تحتاج إلى إثبات .. فطوال فترة احتدام المعارك وصد العدوان كان القائد يصر على أن تكون الصفعة الأولى منا نحن العراقيين فنضرب المعتدى على عينه ونمضى حتى نحطم مدنه لأننا لو كنا قاتلنا على الحدود فلا يعلم إلا الله أين كان سيصل الإيرانيون الآن . فقد أشرف القائد صدام حسين على كل خطوة من خطوات هذه العمليات البطولية

وكان لتواجده فى مواقع القتال الأمامية فى أقسى الظروف .. وأصعبها .. ولتوجيهاته الميدانية السديدة الأثر البارز فى تحقيق هذه النتائج العظيمة . وكان الجنود والآمرون عند حسن ظن قائدهم بهم .. فأعطوا لهذا النصر المؤزر طعمه ومذاقه الذى سيدوم على مر الأيام .

ثم اصطحب عدنان سعدون فى سيارته قائلا له فى سعادة بالغة :

ـــ يمكنك الحصول على مادة صحفية ضخمة ونادرة الآن فسأقطع الفاو اليوم طولا وعرضا !!

أغمض سعدون عينيه فيما يشبه النشوة وهو يقول مع انطلاق السيارة مخترقة أرجاء الفاو :

ـــ ما أروع أن تنقل وكالات الأنباء والإذاعات والصحف العالمية أصداء النصر المؤزر عن جريدة « الثورة » العراقية !

وانطلقت السيارة وسط روح الفرح ومظاهر الاحتفال على جنود الفيلق السابع وهم يتفقدون الدفاعات الإيرانية فى حين كان يجرى نقل مائتى أسير إيرانى فى شاحنات عسكرية كبيرة إلى الشمال . كانت الأعلام العراقية بألوانها الحمراء والبيضاء والسوداء ونجومها الخضراء الثلاث ترفرف فوق الوهاد وبين التلال والروابى ، تكاد تحتضن صور الرئيس القائد ، وتردد أهازيج الفرح والانتصار العظيم .

عاشت البصرة مدينة المدن أروع أيامها بعد ثمانى سنوات من الجهاد الذى لم يهدأ أواره والذى سقط فى معاركه أكثر من عشرين ألف شهيد ، أغلبهم من النساء والشيوخ والذين فقدوا عائلاتهم تحت وابل القذائف التى غطت كافة أنحاء المدينة . فقد أصر أهالى البصرة على عدم ترك المدينة بحيث لم يخرج من أهالى البصرة إلا مواطنو شبه جزيرة الفاو ومنطقة الشلامجة وجزء من الخصيب بعد وقوعها تحت وطأة الغزو الفارسى . فقد هاجروا إلى المناطق القريبة من البصرة ، وبمجرد تحرير الفاو وكان آخر معقل للعدو ، عادوا مرة أخرى إلى مدينتهم للمشاركة فى إعادة التعمير .

كانت أصداء الهتافات والأهازيج تتردد فى أرجاء البصرة وتغمر أبهاء المستشفى الميدانى حتى غرفة العمليات التى انهمك فيها خالد وليلى وعدى وباقى أفراد الفريق الطبى لعلاج جرحى معركة تحرير الفاو الذين تتابعوا فى عربات الإسعاف ، بل إن النخوة العربية لم تتردد فى علاج المصابين والجرحى من الأسرى الإيرانيين ، خاصة الصبية الذين ألقوا فى أتون المعركة على وهم مفاتيح الجنة التى علقها خمينى فى أعناقهم ، فاندفعوا كالقطيع إلى حتفهم بظلفهم حيث أبواب الجحيم التى فتحت لهم على مصاريعها .

كان خالد مبهورا بالروح السائدة فى المستشفى . لم يتذمر أحد العاملين من علاج جرحى الأعداء برغم ضغط العمل عليهم ليل نهار ، إذ أن معظم العمليات كانت عاجلة كالعادة . لكن نشوة النصر امتزجت بالعزيمة الحديدية فأصبح المكان خلية نحل لا تهدأ ولا تكل . وحتى فى أوقات الفراغ أو الراحة أو الطعام كانوا يهرعون للجلوس أمام شاشة التلفزيون لمتابعة آخر أنباء النصر التى ترددها أرجاء الدنيا من مشارقها إلى مغاربها .

بخل خالد وليلى بالنوم والراحة مفضلين متابعة الشاشة الصغيرة . وكم كانت فرحتهما عندما شاهدا عدنان وهو يرد على أسئلة الصحفيين الأجانب فى لحظات خاطفة . تمنت ليلى أن يكون رشيد وزهير فى نفس اللحظة يتابعان التلفزيون فى بغداد ليصلا بفخرهما بأبيهما إلى عنان السماء .

كانت مشاهد الفاو والبصرة تتتابع على الشاشة حيث وفد ممثلون عن الاتحادات والمنظمات لمشاهدة معرض الأسلحة والمعدات والأعتدة التى غنمتها قوات الحرس الجمهورى وتشكيلات الفيلق السابع فى عمليات « رمضان مبارك » . وكانت الوفود تبدى خلال معاينتها للكميات الضخمة من الغنائم التى احتواها المعرض فخرها وتقديرها لبطولة جند العراق الميامين . أما البصرة مدينة المدن فقد خرجت عن بكرة أبيها تشق هتافاتها عنان السماء وتملأ أهازيجها أرجاء المدينة ، فلم يعرف خالد وليلى وباقى أفراد الفريق الطبى عما إذا كانت هذه الهتافات والأهازيج صادرة من شاشة التلفزيون أم أنها قادمة من شوارع المدينة !!

ثم توالت مسيرات الفرح الكبرى فى بغداد والمحافظات والرقع الجغرافية لفروع أبى جعفر المنصور وسعد بن أبى وقاص وخالد بن الوليد وصدام حسين والرشيد وفروع المحافظات . وفى المساء أطلقت المدفعية بعد مدفع الإفطار إحدى وعشرين إطلاقة احتفالا بتحرير الفاو . وفى أول جمعة بعد النصر هدرت أصوات جموع المصلين قبيل الصلاة بالثناء لله عز وجل الذى أعز العراقيين ونصرهم . وتضرع خطباء الجوامع فى بغداد والمحافظات إلى الله تعالى أن يديم نصره للعراق ، وأن يحفظ رئيسه البطل صدام حسين ويمنحه العون والقوة . كما عبر رؤساء الطوائف المسيحية عن تهانيهم وتبريكاتهم للقائد الرئيس .

وحمل الرايات وتوجه إلى بغداد والبصرة والفاو سيرا على الأقدام عدد من المواطنين والمواطنات تعبيرا عن فرحتهم الغامرة . ففى الفاو ارتفع علم عراق آخر مرفرفا فى السماء بيد امرأة عراقية جاءت تسعى مشيا على الأقدام من مدينة صدام ببغداد . ووسط جماهير المقاتلين رددت ليلى عبد أزنيد أهزوجة اعتادت على ترديدها كلما دعا داع للجهاد أو زفت بشارة نصر مؤزر . وسرت روح الأهزوجة بالحماسة المتدفقة فى نفوس المقاتلين فراحوا يشاركونها فرحتها العفوية . وقبل أن تودع ليلى عبد أزنيد المقاتلين أصرت على ألا تعود إلى مدينتهابدون ذكرى من الفاو فكان أن طلبت علما عراقيا من تلك الأعلام التى رفعها الجنود فى الساعات الأولى للتحرير لتتبارك به وترفعه فوق رأسها يظللها فى رحلة العودة إلى بغداد .

وفى بغداد وصلت إلى استعلامات القصر الجمهورى المواطنه رضية

عزيز حمدى من حى الجهاد فى بغداد حاملة راية بيضاء مع صينية مملوءة بالشموع والحناء لتعبر عن فرحتها بالانتصار العظيم . وبعدها توالت الرايات المرفوعة والوثائق المكتوبة بالدم عهدا وميثاقا للرئيس القائد للتضحية والفداء .

وفى البصرة طافت فى شوارعها مجاميع الأسرى الإيرانيين الذين وقعوا فى قبضة القوات العراقية أثناء معركة « رمضان مبارك » لتحرير الفاو . وقد وقف خالد وليلى وباقى أعضاء الفريق الطبى خارج أسوار المستشفى لمشاهدة مواكب الأسرى الإيرانيين مجللة بالخزى والعار . وكان معرض الغنائم فى البصرة يضم أسلحة ومعدات وتجهيزات وأعتدة إيرانية مختلفة معظمها صالح للاستخدام ، وبأعداد كبيرة جدا بما فيها الأسلحة الثقيلة مثل الدبابات والمدفعية الثقيلة التى كان العدو يستخدمها فى قصف مدينة البصرة ، والأسلحة الأخرى والخفيفة مثل مقاومات الطائرات والزوارق والمركبات والمعدات الهندسية المتطورة ، ومعظمها تركها أفراد العدو وهم يفرون كالأرانب المذعورة أمام الطوفان العراقى .

أما زيارة الرئيس القائد صدام حسين لشبه جزيرة الفاو بعد ساعات من تحريرها وتفقده لمواقع العمليات وحواره مع قواده وجنده ، فكانت زيارة الربان الذى قاد سفينته وسط ليالى الأعاصير الهوج ، وضربات الأمواج العاتية ، وجبال الجليد الرواسى ، ودوامات الحقد الأسود ، وقراصنة الظلام الحالك ، إلى بر الأمان حيث أنوار الشروق ودفء القلوب على الأرض الراسخة . فهو الذى قاد معاركه فى جبهة الحرب بل فى مقدمة جيشه مما كان له التأثير الفاعل فى إدارة دفة الوطن صوب آفاق

النصر .فبعد معارك سريعة وصاعقة استطاعت قوات الحرس الجمهورى والفيلق السابع من اجتياز كافة الموانع والأنهار الاصطناعية التى هيأها العدو ، ورافقت هذا الهجوم العراقى الكاسح ضربات جديدة بالصواريخ على طهران وشيراز وقم ومدن فارسية أخرى فى سيمفونية بالغة الروعة بقيادة المايسترو القدير .

كانت المشاهد المتتابعة على شاشة التلفزيون مثيرة للنشوة والبهجة والشجن والأسى . مزيج غريب معقد من المشاعر المتشابكة . كان بالبصرة قبل الحرب ستون مليون نخلة ، لم يبق منها بعد الحرب سوى ما يقرب من ستة عشر مليون بعد عمليات الاحتراق والتدمير والتكسير .

كانت نسبة عالية من الضباط وضباط الصف والجنود ترفض الإخلاء من ساحة المعركة إلى المقرات الخلفية ، عندما تصاب بالجروح . وكانوا يصرون على الاكتفاء بالعلاج المتوفر فى الخطوط الأمامية لكى يتمكنوا من مواصلة القتال !

رفضت نسبة عالية من المقاتلين التمتع بالإجازات التى من حقها . وإذا قامت بها كانت تختصر المدة وتعود مسرعة إلى ساحات القتال عندما تدور المعارك بصورة فعلية !

كان القادة والآمرون يرفضون الانسحاب من مواقعهم إلى الخلف مهما كان الضغط عليهم قويا من جانب العدو !

عاش أطفال العراق بمختلف فئاتهم العمرية تجربة فريدة لم يسبق لها مثيل من نوعها . فمنذ بداية الحرب تحدى أطفال العراق طائرات العدو

التى كانت تحاول الإغارة على أحيائهم السكنية ، وبدلا من صورة الخوف والرعب التى غالبا ما تصيب الأطفال فى مثل هـذه الحالات ، كان الأطفال ينتشرون فى الشوارع وعلى أسطح المنازل وهم يتابعون بفرح غامر وانفعال شديد ما تفعله مدفعيتهم التى تودى بالطائرات المعادية ، ويتسابقون إلى أماكن سقوط الطائرات المعادية والطيارين الذين يقذفون بأنفسهم منها برغم تحذيرات رجال الدفاع المدنى ونصائحهم !! بل إن هذا الوضع تطور مع سنوات الحرب الثمانى إلى الحد الذى شاركت فيه أعداد كبيرة جدا من الأطفال والفتيان فى أعمال الدفاع المدنى وأنشطته !

نظرت ليلى إلى الساعة المعلقة على الجدار فوق التلفزيون فى الاستراحة ثم نهضت قائلة فى مزيج من الدعابة والحسم :

ـــ لو تركنا أنفسنا لإغراء الفرحة لتركنا المصابين الذين يحتاجون إلى عمليات عاجلة معرضين للخطر .. الواجب يأتى فى المقام الأول قبل الفرحة !

نهض خالد بدوره وهو يتعجب لهذه السيدة العظيمة التى تضرب بنفسها المثل الأعلى دائما . سأل الممرضة الواقفة إلى جواره :

ـــ هل مريض الغرغرينا جاهز ؟!

أجابته بلهجة عسكرية :

ـــ جاهز يا دكتور ..

سار إلى جوار ليلى فى الممر المضىء بنور الشمس وخلفه أعضاء الفريق الطبى . كان المريض أسيرا إيرانيا لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره ، مزقت الطلقات فخذه فأصابته بالغرغرينا مما تحتم معها إجراء عملية بتر .

كان منظر الصبى مثيرا للأسى والحزن وهو لا يزال يصر على تعليق مفتاح الجنة حول عنقه ! كانت ليلى ترى فيه أحيانا ابنها الأكبر زهير فالفرق بينهما فى العمر لا يزيد على ست أو سبع سنوات ، فقد كانت أمومتها قادرة على احتواء أطفال العالم جميعا ! وكان الأسى الذى غمرها عظيما عندما رفض الاستجابة لها تماما فى أية حركة أو كلمة قالتها لإقناعه بخطأ ما فعل ! كان غسيل المخ الذى جرى له ولأمثاله منذ بدايات الوعى قد أحاله إلى آلة صماء تخضع لبرنامج واحد وضعه لها صانعوها فى طهران وقم من آيات الله !!

وبرغم الصفرة التى افترشت وجهه وشفتيه ، والحمرة التى نضحت من عينيه وجفونه ، فإن نظراته كانت تقدح بالشرر وتتجول بين أرجاء الغرفة البيضاء ثم تبطىء من تجوالها عند المائدة المعدنية الصغيرة التى وضعت عليها أدوات الجراحة المعقمة متوازية فى طابور طبقا لترتيب استخدامها فى العملية . كان أعضاء الفريق الطبى منهمكين فى وضع آخر لمسات التجهيز والإعداد : طبيب التخدير يتفحص أجهزته ، وخالد وليلى يراجعان كل الترتيبات والتجهيزات كعادتهما . وعيون الصبى الزائغة لا تتوقف عن مسح أركان الغرفة ثم تستريح على المائدة المعدنية الصغيرة متفحصة أدوات الجراحة اللامعة ببريقها المنعكس من المصباح المتدلى من السقف !

لم تسترح ليلى لنظراته ومع ذلك أقنعت نفسها بأنها نظرات الهذيان الذى دفع بهذا الصبى كى يلقى بنفسه فى فوهة البركان طالما أنه ضمن الجنة التى يحمل مفتاحها فى عنقه ! ربما كان خوفه من أن هذه الأدوات

الجراحية ستبتر ساقه ويعيش العمر كله بساق واحدة ؟! وربما كان يعانى
من صراع بين الأفكار التى تربعت على مخه بعد غسيله وبين الواقع الذى
آلت إليه حياته الضائعة ؟! إن البؤس البشرى لا يمكن أن يدع صورة
أبشع من منظر هذا الصبى الممدد على مائدة العمليات وقد تراوحت
نظراته بين الأسلحة الطبية ذات الوميض وظهر خالد المنحنى لاختبار
مفاتيح جهاز قياس النبض ! اتحد وميض الأسلحة فجأة بوميض عينيه
المفاجىء ليقفز كالصاروخ ويمسك بأكبرها وأحدّها فى محاولة مستميتة
ليغمده كله فى ظهر خالد !!

(١٢)

تلقت سهام برقية من خالد بموعد وصول طائرته إلى القاهرة فى تمام الساعة الثانية عشرة ظهرا ! كانت فرحتها مع دعاء وأيمن لا توصف ! فقد عاد السلام إلى العراق وأجبرت إيران على قبول وقف إطلاق النار بعد أن تلقت الضربة القاضية فى الفاو التى كانت آخر جولة من جولات القتال . لكن شيئا ما غامضا عكر فرحة سهام ببلوغها اليوم الموعود ، إذ أن خالداً لم يرسل إليها خطابا تفصيليا كعادته منذ تحرير الفاو . وظل القلق ينهشها إلى أن طمأنتها السفارة المصرية فى بغداد والسفارة العراقية فى القاهرة على أساس أنه على وشك العودة وسيكتفى ببرقية تحديد وصول الطائرة ، أما التفاصيل فيمكن أن يقصها عليها شخصيا عندما يصل بسلامة الله !

لكن القلق ظل ينهب قلبها حتى بلغت البرقية التى غمرتهم بنشوة اللقاء المرتقب ، ومع ذلك ظل هذا الإحساس الغامض الدفين يعكر صفو فرحتها . كانت البرقية مقتضبة للغاية : سأصل إلى مطار القاهرة الدولى فى الخامس عشر من مايو فى تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً ! قد يكون التوتر الذى كاد أن يمزق أعصابها فى الفترة السابقة لايزال يمد ظله عليها ! فقد كان آخر خطاب تلقته منه من بغداد قبل عودته إلى البصرة ثم وقعت معركة تحرير الفاو وانقطع الاتصال ومرت بها لحظات أيقنت فيها أنه لابد

أن يكون قد استشهد !! بل إنها قرأت نفس المشاعر الرهيبة فى نظرات دعاء وأيمن دون أن يصارح أحدهم الآخر بما ينهشه من الداخل ! لكن — على أية حال — جاءت البرقية فى النهاية بردا وسلاما على قلوبهم !

وها هى الآن منطلقة بمفردها بسيارتها فى طريقها إلى المطار بعد أن أوصلت كلا من دعاء وأيمن إلى مدرستيهما لأداء امتحان آخر العام . ولولا هذا الامتحان لكانا معها الآن . وخوفا من احتمال تأخر الطائرة أو أى طارىء آخر كلف أبوها سائقه الخاص بتوصيلهما إلى البيت بعد أداء الامتحان .

كانت الشمس الساطعة الساخنة تفترش الطريق الذى قامت على جانبيه العمارات الجديدة ذات الألوان الشهباء . إنها لا تصدق أنها ستقابل خالداً بعد ساعة واحدة فقط من الآن !! هل يعقل أن يمر بها ما مر بالفعل !! إن الأحداث والمواقف التى مرت بها منذ رحيله تكاد تبدو خيالية غير حقيقية !! لقد صهرتها التجربة حتى كادت أن تصبح شخصية مختلفة تماما ! حتى حديثه عن ليلى فى آخر خطاب له كان مدعاة لسعادتها وسرورها ، فعلى الأقل يوجد من يرعى زوجها فى زمن الخطر ! بل إنها فكرت فى أن ترسل إليها خطابا خاصاتشكرها فيه على رعايتها لخالد لكنها تحرجت فى اللحظة الأخيرة ، وتمنت أن تكون ليلى هى البادئة حتى تفسح الطريق لها ، خاصة وأنها منذ أيام التلمذة فى كلية الطب بالقاهرة كانت تملك فى يدها عنصر المبادرة دائما لكن يبدو أن عجلة الحرب الجهنمية لم تترك مجالا لبث المشاعر الخاصة ! ولذلك كانت سعيدة بخطابات خالد إليها لأنها دليل عملى ومادى على ارتباطه الوثيق بها برغم الظـروف

المأسوية التى يمر بها ! إن المعدن الحقيقى للإنسان لا يبدو على حقيقته إلا عندما تنصهر الشوائب المحيطة به فى بوتقة المحنة ، فيبدو لامعا نقيا صلبا .

كانت السيارة تنهب الطريق نهبا مثل الخواطر التى تنهب وجدانها ! كان خالد قد عبر عن سعادته فى آخر خطاب له للتغير الذى طرأ عليها و لم يخف مخاوفه من أن يكون التحول طارئا عابرا ، لكنها آثرت أن يلمس بنفسه شخصيتها الجديدة عندما يلتئم الشمل مرة أخرى . لتدع الأفعال والمواقف تتحدث عن نفسها !

خرجت من أمواج خواطرها المتلاطمة على هدير طائرة عملاقة فى طريق هبوطها إلى المطار وأصداء دويها تتردد بين العمارات ثم تنتشر لتتلاشى فى أرجاء الصحراء ! كان كل أمل سهام متمثلا فى إصرارها على تغيير صورتها عند ليلى ! لقد حل السلام ويمكن أن تدعوها هى وزوجها وطفليها زهير ورشيد لقضاء إجازة فى وطنهم الثانى مصر ، أو إذا حالت الظروف دون ذلك فيمكنها أن تذهب هى وخالد ودعاء وأيمن لزيارتهم فى البصرة التى افتدت الأمة العربية كلها . بل كم تشتاق الآن لتأخذ ليلى فى أحضانها بنفس اشتياقها لخالد !! كم بدت فى نظر خالد طفلة حمقاء تنهشها الغيرة لمجرد أوهام تربعت على عرش قلبها وعقلها منذ الطفولة ! ولابد أنها بدت كذلك فى نظر ليلى ! لكن لكل عالم هفوة ولكل حصان كبوة ! والأيام القادمة كفيلة بتغيير صورتها وتحسين ملامحها وتجميل تفاصيلها فى نظر خالد وليلى ! فهى — كما يبدو للأسف — ليست من النوع الذى يملك بيده إرادة تغيير نفسه وإنما من النوع الذى لا يتغير الا عندما توشك التجربة أن تسحقه ! والحمد لله

فهى لم تسحقها بل خرجت من بوتقتها أشد قوة ، وأكثر نضجا ، وأعمق وعيا بالحياة والطبيعة البشرية !

بدت أبنية المطار يعلوها البرج ، أما ساحة الانتظار فقد تراصت فيها السيارات الخاصة والأجرة والحافلات . توقفت سهام أمام نافذة تذاكر الدخول إلى الساحة لتحصل على واحدة ثم استدارت يسارا بحثا عن مكان قريب من مبنى المطار لكنها لم تجد إلا مكانا للانتظار عند نهاية الطوار أمام باب المطار .

غادرت السيارة صوب مدخل المطار لكن أذنيها اصطكت بصوت عويل وندب وسرعان ما رأت نسوة فى ثياب سوداء يقفن حول عربة لنقل الموتى بداخلها نعش يحمله بعض الرجال . خلعت سهام عينيها من ثنايا المشهد الكئيب لتنطلق إلى داخل المطار وقد وقع قلبها وسط أصابع قبضة حديدية ! كانت صالة الوصول تغص بالمنتظرين فدفنت سهام نفسها وسط الزحام هربا من الخواطر الكئيبة الغامضة التى هاجمتها بعنف لا هوادة فيه! خواطر لا لزوم لها ولا معنى وطائرة خالد ستهبط فى المطار بعد نصف ساعة ! وها هى لوحة المواعيد تعلن عن وصولها فى ميعادها ! فلماذا الخوف والقلق والاكتئاب ؟!

هاجمها خاطر كاد أن يدمر أبراج عقلها ! هل يمكن أن تكون البرقية مرسلة من السفارة المصرية فى بغداد وأن وصول خالد يمكن أن يكون فى نعش مثل ذلك الذى رأته وانقبض له قلبها منذ لحظات ؟! سترك يا رب أعنى على هذه الخواطر السوداء حتى هبوط الطائرة فليس هناك من أتكلم معه ليسرى عن نفسى فى هذه اللحظات الثقيلة على القلب كالرصاص

البارد !

تضرع قلبها إلى الله وهى تتحرك بين المنتظرين الذين لاحظ بعضهم خطواتها البطيئة المشدودة المتوترة ونظراتها الحائرة الزائغة المترددة بين لوحة المواعيد والمدخل الذى يلفظ القادمين على طائرة وراء الأخرى ! حملها الرعب على جناحين شائكين بعيدا فعجزت عيناها فى بعض الأحيان عن رؤية الخانة التى تعلن عن وصول طائرة بغداد فى موعدها ! أسرعت إليها تمعن النظر وتدقق البصر حتى تتأكد من أنها لا زالت مسجلة على اللوحة ! كانت عيناها تطمئنان ، لكن سرعان ما سلبتها دقات قلبها المتسارعة تلك الطمأنينة العابرة المشتتة المبعثرة !

حاولت أن تثبت قدميها على الأرض بحيث تظل مكانها حتى هبوط خالد ! نجحت لدقائق لكن أذنيها التقطتا حديثا متبادلا بين أفراد المجموعة المنتظرة إلى جوارها ، سقط بها إلى قاع بئر الرعب المظلمة ! دار الحديث عن بعض النعوش التى وصلت إلى قرية البضائع من العراق ، وتحمل فى باطنها بعض المصريين الذين استشهدوا فى المعارك الأخيرة بين العراق وإيران !

مادت الأرض تحت قدميها وأوشكت على السقوط لولا تحاملها على نفسها حتى أسندت ظهرها إلى الجدار الرخامى البارد الذى لم يلطف من سخونة جوفها الملتهب !! فجأة بزغ داخلها خاطر قادم من فترة التحولات الأخيرة فى حياتها : فلتفترض أن خالداً استشهد بالفعل فهل يمكن لأحد أن يمنع القدر ؟! صحيح أنها ستكون صدمة العمر وكارثته لكن لابد للحياة أن تسير ! ويبدو أن الله أراد بهذه الشهور التى عاشتها مع

دعاء وأيمن بدون خالد أن تدرب نفسها على فقده ، وأن الصلابة الجديدة التى اكتسبتها ، كانت من الأسلحة التى تمنحها الطبيعة للإنسان كى يؤقلم نفسه مع الظروف الجديدة والمختلفة والطارئة ! ومع ذلك فليس هناك شيء مؤكد على الإطلاق ويبدو أن هذه طبيعة الحياة البشرية !

عادت عيناها إلى لوحة المواعيد لترصد هبوط طائرة بغداد بالفعل . أسرعت لتقترب قدر إمكانها من باب الوصول فشاهدت موكبا من القادمين يدفعون عرباتهم المعدنية أمامهم . سألت أحدهم فى لهفة :

ــ طائرة بغداد ؟!

فأجابها بنبرات مرهقة :

ــ لا .. طائرة جدة !

ظلت تتصفح الوجوه تارة والحقائب تارة أخرى لترصد جنسية الطائرة من الطابع الملصق عليها . ثم هلت بعض الوجوه السمراء والخمرية فقرأت على الحقائب : الخطوط الجوية السودانية . وتوالت المواكب وعيناها تمسحان طوابع الحقائب حتى لمحت : الخطوط الجوية العراقية وصاحت متسائلة دون تفكير :

ــ طائرة بغداد ؟!

فأومأ القادم برأسه دون أن يفتح فمه فسألته وقد سارت إلى جواره فى لهفة طائشة :

ــ هل جاءت نعوش فى الطائرة ؟!

نظر إليها مندهشا ثم أسرع يدفع عربته حتى تجاوزها فإذا بها تسأل من يليه بنفس اللهفة المتصاعدة نفس السؤال ، فقال لها بلهجة عراقية :

— ياسيدتى .. عندك مكتب الشركة واستعلامات المطار !

تماسكت مرة أخرى وهى تمسك بالسور المعدنى الممتد أمام باب الوصول بأصابع متقلصة وقد اهتزت الوجوه والحقائب فى عينيها ، وهاجس يوحى إليها بأن القادمين على الطائرة العراقية على وشك أن ينتهوا ليتدفق ركاب طائرة أخرى دون أن يصل خالد ! عندئذ عليها أن تسرع إلى مكتب الخطوط العراقية أو استعلامات المطار ! بل كان من المفروض عليها أن تقوم بهذه الاتصالات قبل وصولها إلى المطار حتى تصل إلى بر اليقين ، حتى لو كان اليقين كارثة محققة !

فجأة بزغ من الباب خالد ! لا .. إنه شبح خالد ! تحولت سمرته إلى لون داكن غريب ، ورشاقته إلى نحول رهيب ، وانطفأ البريق فى عينيه السوداوين ، واختفى شاربه الدقيق وسط شعيرات ذقنه النابتة التى مزجت الأسود بالرمادى بالأبيض ! كان يدفع عربته بوهن شديد برغم أنها لم تكن تحمل سوى حقيبة واحدة متوسطة الحجم ، وعيناه تجولان بحثا عن سهام !

لم تصدق سهام عينيها ومع ذلك انطلقت كالسهم لتقطع الشك باليقين وتحتضنه بجنون ودموع وأحضان لم تخف عن أعين بعض المنتظرين ! تفاقم ذهولها عندما وجدته فى أحضانها طفلا هشا يكاد يصبح ريشة فى مهب الرياح . صاحت :

— كدت أجن !! ماذا جرى لك ؟! لماذا أنت مرهق بهذا الشكل ؟! الحرب انتهت منذ شهر !! لماذا انقطعت خطاباتك فى الفترة الأخيرة ؟!

أجابها بنبرات متقطعة حاولت أن تتبينها قدر إمكانها :

— سأقص عليك كل شيء بالتفصيل !

دفعت العربة بيد وهى تمسك بذراعه باليد الأخرى حتى خرجا إلى شمس ساحة الانتظار . سألها :

— أين دعاء وأيمن ؟!

— يؤديان امتحان آخر العام !!

لاحظ خالد لأول مرة التغير الذى طرأ على شخصيتها ! أحس أنه يسير إلى جوار امرأة قوية وصلبة إلى درجة الصرامة ! امرأة تختلف تماما عن تلك التى تركها ليسافر إلى الجبهة العراقية الإيرانية ! صحيح أنه خمن بعض هذا التحول فى خطاباتها إليه لكنه لم يتصور أنها أصبحت مختلفة بهذا الشكل ! علق بنبرات شرعت فى اكتساب حيوتها :

— كان الله معهما !

وضعت سهام الحقيبة فى خلفية السيارة وأسرعت لفتح الباب حيث جلس إلى جوارها . انطلقت صوب طريق العودة ، وقلق من نوع جديد ينهشها لمعرفة ماذا جرى له ؟! لأن شيئا فى قلبها كاليقين نفسه يؤكد لها أن الحرب ليست السبب فى المظهر المخيف الذى يبدو عليه الآن ؟! تضرعت إليه وإن لم تحول بصرها عن الطريق الذى تنهبه السيارة :

— أكاد أجن لأعرف ماذا جرى لك ؟! قلبى يحدثنى بأشياء مخيفة !!

— أشياء مخيفة مثل ماذا ؟!

— لا أدرك كنهها لكنها تلهبنى بسياط من نار !! أرجوك لا تتركنى هكذا !!

ـــ أنا فى حاجة أشد منك لأقص ما وقع ! فهو من النوع الذى تنوء الجبال بحمله !! لكننى لا أعرف كيف أبدأ ؟! بل إن جسمى يقشعر ويرتعش لمجرد اجتراره فى صمت فكيف أحتمل الحديث عنه ؟!

طوت السيارة الطريق كالسهم :

ـــ هل أصابتك كارثة ؟! مصيبة ؟! هل بك شىء ؟! أرجوك تكلم !!

كادت تنحرف بالسيارة تمس سيارة مجاورة أعادها بوقها إلى قدرتها على التركيز وهو يقول :

ـــ أرجوك انتبهى وسأقص عليك كل شىء !! وإن كنت أفضل الانتظار حتى نبلغ البيت ! فربما أثر على تركيزك وانتباهك!!

ـــ وهل تعتقد أن صمتك الرهيب لن يؤثر عليهما ؟! تعلمت فى غيابك أن أضع أسوأ الاحتمالات فى ذهنى .. بل وكنت أتوقعها فى أية لحظة !! ولذلك فأنا أفضل الإلمام بالكارثة ومواجهتها على الهروب منها بالصمت !

هذه ليست سهام التى يعرفها ! إنها امرأة قوية قادرة على المواجهة لثقتها البالغة فى نفسها ! طاف بعينيه طيف ليلى فومضتا بدمع عابر وهو يقول محاولا تنظيم كلماته :

ـــ لا أعتقد أنه من الحكمة أن أقص عليك مثل هذه الأحداث وأنت أمام عجلة القيادة ووسط طوابير السيارات !

نفد صبرها وفى الحال انحرفت يسارا عندما بزغت مبانى فندق كبير ، وعبرت شريط الخضرة والأشجار إلى النصف الآخر من الطريق لتدخل من بوابة الفندق وتقف فى أول مكان خال بساحة الانتظار . هبطت من

السيارة وهى تقول فى توتر لم تكبته :

— نستطيع أن نجلس هنا ويمكنك أن تخبرنى باندلاع الحرب العالمية الثالثة !!

خرج بدوره ليغلق الباب ويسير إلى جوارها حتى بلغا كافتيريا تناثرت موائدها ومقاعدها بين الشجيرات وأحواض الورد التى ذكرته بآخر أيامه مع ليلى فاجتاحته موجة عارمة من الكآبة ! جلسا إلى مائدة متطرفة تظللها فروع شجيرة بأوراقها التى أنضجها الربيع وهو لا يزال يقاوم الموجة التى أغرقته . ربتت على يده الممدودة على المائدة فى حنان دافق :

— لك أن تفرغ كل ما فى صدرك ! فلن يكون أقسى مما مررنا به معا !

دمعت الحيرة فى عينيه وتردد قليلا ثم قال :

— بل أقسى بالفعل يا سهام !

تركت يده بأصابع متقلصة :

— إنك تثير الرعب فىّ يا خالد ! تخلصت من الغيرة كى تلقى بى فى أعماق الرعب !

أثارت شفقته فقرر أن يحسم أمره :

— سأبدأ من حيث بدأ الكابوس الذى لم أفق منه حتى الآن !

توسلت إليه فى ضراعة :

— أرجوك .. تكلم !

بدا كمن يستجمع أشتات شجاعته وشوارد أفكاره :

— ما وقع لم يكن فى حسبان أحد منا على الإطلاق !! كنا نعيش أفراح تحرير الفاو الذى حسم ميزان الحرب نهائيا لصالحنا .. وأجبر إيران

على قبول وقف إطلاق النار بعد طول صلف ومكابرة .. لكن الشهامة العربية أبت إلا أن تعالج الأسرى الجرحى الإيرانيين تماما كما تعالج أبناءها !! بل واعتبرتهم ضحايا النظام الإيرانى الذى قام بعملية غسيل رهيبة لأمخاخهم ففقدوا القدرة على مجرد التمييز بين الصواب والخطأ !! وتحولوا إلى مجرد وقود لاستمرار آلة الحرب الجهنمية التى يديرها الحكام فى طهران دون أى اعتبار لمئات الأرواح التى تزهق يوميا !! فعندما يصل الأمر إلى منح هذه الضحايا مفاتيح الجنة فيخوضون الحرب على هذا الأساس ! فإن هذا لا يعنى سوى ضياع كل مفاتيح المنطق والعقل بل والإنسانية ذاتها !!

لمح خالد النادل قادما فصمت لالتقاط أنفاسه المبهورة . انحنى أمامهما فى أدب :

— تحت أمركم !

لم تحتمل سهام مقاطعته فأسرعت بقولها :

— كوبان من الليمون .. من فضلك !

استدار النادل لينفذ المطلوب فى حين وقف على فرع الشجيرة عصفور ظل يقفز ويشقشق ، فذكر خالداً ببعض العصافير التى كانت تنطلق هنا وهناك فى أعقاب الغارات المسعورة على البصرة بحثا عن حبات قمح أو أعشاب متناثرة . تساءلت سهام لتخرجه من شروده :

— وماذا بعد خوض المجندين الإيرانيين الحرب بمفاتيح الجنة ؟!

حاول أن يبلع لعابه الذى جف :

— كان المصاب أسيرا إيرانيا لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره .. مزقت الطلقات فخذه فأصابته بالغرغرينا مما أجبرنا على إجراء عملية

بتر لساقه .. كان منظر الصبى مثيرا للأسى والحزن وهو يصر على تعليق مفتاح الجنة حول عنقه !! لكننى لم أعبأ بنظراته المتقدة بالشرر برغم الصفرة التى افترشت وجهه وشفتيه ، والحمرة التى نضحت من عينيه وجفونه !! كان أعضاء الفريق الطبى منهمكين فى مراجعة كل الترتيبات والتجهيزات للعملية .. وكلهم رثاء لهذا الصبى الممدد على مائدة العمليات نموذجا لأبشع أنواع البؤس البشرى !! أما أنا فكنت منهمكا فى اختبار مفاتيح جهاز قياس النبض منحنيا عليه وظهرى مواجه لهذا الحيوان الجريح المسعور !! وفجأة شعرت بليلى تحتضن ظهرى وقد أحاطت صدرى بذراعين من حديد .. فى محاولة خاطفة للإلقاء بى بعيدا عن هجمة المسعور الذى اختطف أكبر وأحد سلاح من الأدوات الجراحية الجاهزة للعملية ليغمده فى ظهرى !

ارتعشت شفتاه ومعهما نبراته وجفونه التى ومضت بالدموع . تقلصت أصابع سهام على مفرش المائدة قائلة بصوت مبحوح .

ــ أرجوك ! لا تقل إن ليلى راحت ضحية هذا المعتوه ؟!

انهمرت الدموع على وجنتيه لكنه تماسك حتى لا ينفجر باكيا :

ــ هذا هو ما حدث بالضبط يا سهام ! فدتنى وتلقت الطعنة فى ظهرها لتسقط على الأرض مضرجة فى دمائها الطاهرة !

صمت ليلتقط أنفاسه ويمسح دموعه بمنديله عندما لمح النادل قادما بكوبين من الليمون ليضعهما على المائدة متجاهلا المشاعر الغريبة والنظرات الزائغة فى عيونهما ! خرجت كلمات سهام لاهثة من صدر يعلو ويهبط وينوء بانفجار يوشك أن يمزقه :

— هكذا بهذه السرعة وبهذه البساطة ؟!

ردد كلماتها بآلية عاجزة عن التفكير :

— هكذا بهذه السرعة وبهذه البساطة !!

— ألم تكن هناك وسيلة لإنقاذها ؟! وهى التى أنقذت المئات من المصابين والجرحى ؟!

— بذلنا المستحيل .. لكن السلاح كان ماضيا وطويلا فنفذ فى أروع وأعظم قلب كان يتدفق بالحب والعطاء لكل البشر !!

تهدجت نبراته لتتحول إلى بكاء صامت خلف منديله المبتل ! لم تر سهام زوجها وهو يبكى أبدا ! الآن يبكى كطفل فقد أمه ! كيف تسانده فى محنته وهى عاجزة الآن تحت وطأة المأساة التى طحنتها لمجرد الاستماع إليها فى حين أنه عاشها لحظة بلحظة ! كانت كلماته ضربات حديدية على خلايا مخها فبعثرتها! ومع ذلك حاولت أن تساعده على الإفضاء بالشحنة المتفجرة التى تكاد أن تسحقه :

— لابد أنك يا حبيبى عشت كابوسا بشعا !! لماذا لم ترسل الىّ حتى أقف بجوارك ؟! إن أهوال الحرب كلها يمكن أن تتكثف وتتجمع فى لحظة رهيبة كهذه !! لكنها ليست موزعة هذه المرة على الشعب كله !! وإنما منصبة هذه المرة على رءوس المحيطين بهذه الحبيبة وأنت فى مقدمتهم !!

استراح خالد بعض الشىء لهذه الكلمات التى لم يكن يتوقع مثلها من زوجته أبدا! لكن يبدو أن إشعاع ليلى قادر على قهر المكان والزمان والموت ! عاد إلى التماسك وهو يشعر بالاقتراب من زوجته لمسافات حميمة :

ـــ كان كابوسا رزحت تحت وطأته أكثر من شهر !! لم تفارق نظرتها الحبيبة وابتسامتها الواهنة عينى .. وهمساتها الذبيحة أذنى !! وأنا أحملها كالمجنون بين ذراعى إلى مائدة العمليات !!

ـــ وماذا فعلتم بالصبى المجنون ؟!

ـــ أسرع الواقفون للقبض عليه .. لكنه ظل يلوح بالمشرط اللامع الكبير مهددا إياهم حتى لايقتربوا وهو يصرخ بألفاظ غير مفهومة ثم هوى به فى بطنه ليسقط على الأرض وقد لفظ أنفاسه الأخيرة ويده اليسرى لا تزال تقبض على المفتاح المدلى من عنقه !

ـــ كل هذا الرعب شهدته غرفة العمليات ؟! الآن أدركت فقط السر فى استمرار هذه الحرب المجنونة ثمانى سنوات !! أنا أفهم أن تصيب الحمى فرداً أو أكثر مع انتقال العدوى !! لكن أن تصيب شعبا بأكمله فهذه مأساة ما بعدها مأساة !!

قال خالد بنظرات شاردة وهمسات مبحوحة كأنه يرى ويسمع ما يقصه :

ـــ لم تفارق الابتسامة بريق عينيها الأسود وهى تهمس : كنت أتمنى أن يكون لحياتى معنى كبيرا وأيضا لموتى !!

صرخت فيها وأنا أقبل يديها توسلا وتضرعا :

ـــ أرجوك .. لا تذكرى هذه الكلمة !! فأنت الحياة نفسها !

لكنها وسط ذهول الحاضرين ونحيبهم همست بنبرات متلاشية :

ـــ أنسيت أننى طبيبة وأدرك ما أعنى !! كل ما يقلقنى الآن الصدمة التى سيتلقاها عدنان وزهير ورشيد .. حاول بحكمتك مساعدتهم على

استيعابها !! فأنا لا أحتمل تعكير صفو الأحباب !

ظللت أصرخ محاولا الضغط أكثر على نافورة الدم الساخن المتدفق من ظهرها :

ــ ستعيشين !! سنجرى لك عملية حالا !!

لكن شعرت بارتخاء جسدها بين ذراعى ، وهبوط صدرها بلا صعود ، وانفراج شفتيها الشاحبتين ، وارتماء ذراعيها على الملاءة القانية ! فلم أصدق الكابوس الذى أكد لى أنها رحلت ! حاولت الاستيقاظ منه لعلنى أراها كعادتها تشع بالحب والحيوية فى كل مكان تحل به لكننى فشلت ، فسقطت مغشيا علىّ !!

أوشكت أصابع سهام المتقلصة أن تصطدم بالكوب الملىء بشراب الليمون :

ــ وماذا حدث بعد ذلك ؟!

ابتسم فى مرارة :

ــ طلبت منى أن أساعد زوجها وولديها على استيعاب الصدمة !! وكنت أول من يحتاج إلى هذه المساعدة !! فقد ظللت فى المستشفى أرزح تحت وطأة الصدمة غير قادر على استيعابها .. أفيق للحظات ثم أعود للذهول ساعات !! حتى وداعها لم أنل شرفه !! كانت المسكنات والمنومات هى طعامى المفضل! كلما عدت إلى الوعى كنت أتذكر أنها ماتت فداء عنى .. فلا أحتمل وألوذ بالذهول وأنا الطبيب المتمرس !!

تنهدت سهام فى حرقة :

ــ فى المحنة الإنسانية لا فرق بين إنسان وآخر .. خاصة إذا كانت من هذا النوع الرهيب الذى يحاصر الإنسان من كل جانب ! كان المفروض

أن أحضر لأكون إلى جوارك ! وإلا ما فائدتى ؟!

ـــ كانت العناية بى فائقة ! كذلك عجزت عن التركيز لكتابة خطاب إليك ! كان تفكيرى كله منصبا على ما حدث فى الماضى وليس على ما يجب أن أفعله فى المستقبل !

ـــ عندك كل العذر وكل الحق فيما تقوله ! فما جرى سيظل محفورا فى حياتنا حتى آخر العمر!

سرى بعض من برد الراحة فى عروق خالد الملتهبة عندما شعر بمشاركتها الحميمة له فى حمل العبء ، فقال :

ـــ صعب أن يعيش الإنسان وهو يعرف أنه مدين بحياته نفسها لإنسان آخر ضحى بنفسه من أجله ! إنه دين لا أعرف كيف أرده !

ـــ المشكلة ليست على هذا الوجه بالتحديد .. وإنما تكمن فى معرفتك الشخصية والحميمة بهذا الإنسان .. فالذين ضحوا بحياتهم من أجل الوطن والعروبة فى العراق لهم فى عنق العراق والعروبة دين إلى الأبد أيضا .. ومع ذلك فإن أحاسيس الفخر والتعظيم والتمجيد لهم هى السائدة عند الأحياء .. فهم فى الواقع رحلوا بأجسادهم فقط أما أرواحهم فترفرف على أرض الوطن من عليائها إلى الأبد ! هكذا ستظل روح ليلى أيضا ! أما الشعور بالذنب فلا محل له !

لم يتوقع خالد أن يسمع مثل هذه الأفكار والكلمات الرائعة من سهام التى مست أكثر الأوتار شداً داخله فمنحته استرخاء لم يشعر بمثله منذ ذلك اليوم الرهيب . قال :

ـــ لقد تغيرت كثيرا يا سهام !

استأنفت حديثها مستريحة لصورتها الجديدة التى تتشكل أمامه :

ـــ هناك بشر تحرقهم نار التجربة .. وآخرون ينضجون عليها .. ولقد اخترت أن أكون من الفريق الثانى !

ـــ واضح استفادتك البالغة من قراءاتك فى علم النفس !

ـــ لم تكن القراءات هى السبب الوحيد .. وإنما المثل الأعلى الذى ضربته ليلى بنفسها فى نضج التفكير وعمق البصيرة !! كانت إشعاعاتها تصل الىّ من بين سطور خطاباتك إلىّ عندما تتحدث عنها بطريقة عابرة خوفا من أن أكون تحت وطأة الغيرة الطفولية القديمة !

ـــ كانت مخلوقة قادرة على تغيير كل من يتصل بها إلى الأفضل ! كانت نموذجا فريدا فى نوعه ومثلا أعلى لكل من حولها !

ـــ إنها من البشر الذين يتركون الحياة أفضل مما جاءوا إليها ! ويجب أن تسعد بالقدر الذى أتاح لك فرصة معرفة وصداقة هذه المخلوقة المشعة الرائعة .. لا أن تبتئس لأنه حرمك منها ! فقد عشت من قبل عشرين عاما دون أن تعرف عنها شيئا ! ثم شاء القدر أن يجمعك بها ثانية لتشهد أروع ملحمة يمكن أن يمر بها إنسان ! صحيح أن فراق الجسد صعب .. لكن اتحاد الروح أبدى ! ويكفينا أن نعيش على نور ذكراها العطرة ! فنحن بهذا نملك كنزا لا يملكه كثيرون غيرنا !

مد خالد يده ليربت على يدها :

ـــ فعلا .. إن الله يمد الإنسان بالسند والقوة فى الوقت الذى يظن أن كل شيء حوله قد انهار واحترق وأصبح رماداً !

قدمت إليه كوب الليمون فتناوله ليتجرع نصفه فى حين فعلت هى

نفس الشيء . قالت :

— فى طريقى اليوم إلى المطار لاستقبالك اجتاحنى الندم لأننى لم أجرؤ على إرسال خطاب إلى ليلى لأشكرها على رعايتها لك ! كنت أتمنى أن تكون ليلى هى البادئة حتى تفسح الطريق للمراسلات بيننا !! خاصة وأنها منذ أيام التلمذة فى قصر العينى كانت تملك فى يدها عنصر المبادرة دائما .. لكن يبدو أن عجلة الحرب الجهنمية لم تترك مجالا لبث المشاعر الخاصة ! كان أملى أن أغير صورتى القديمة عندها ! لقد حل السلام وفكرت فى دعوتها هى وزوجها وطفليها زهير ورشيد لقضاء إجازة فى وطنهم الثانى مصر .. أو إذا حالت الظروف دون ذلك فيمكننا أن نذهب أنا وأنت ودعاء وأيمن لزيارتهم فى البصرة التى افتدت الأمة العربية كلها !

تنهدت بحرقة من أعماقها وخالد يتابعها فى شغف :

— كم اشتقت أن آخذها فى أحضانى نفس اشتياقى لك ! كم اشتقت أن ترى ليلى صورتى الجديدة !!

تجرع خالد ما تبقى فى الكوب :

— إنها تراها الآن من عليائها !

بدا التصميم على شفتيها الرقيقتين :

— وما زلت عند إصرارى ! بمجرد أن ينتهى امتحان دعاء وأيمن الأسبوع القادم .. سنشد الرحال إلى العراق لزيارة زوجها البطل وابنيها زهير ورشيد ! أريد أن أفعل أى شيء يخفف ولو قليلا عن هذه الأسرة التى ضربت مثلا أعلى فى البطولة والشهادة ! كما أتمنى زيارة قبر الشهيدة وقراءة الفاتحة على روحها الطاهرة !

بدت بوادر ابتسامة شاحبة على وجه خالد لأول مرة :

ـــ أنت تعبرين بالضبط عما يجيش بصدرى !

نظرت فى ساعة يدها ونهضت وهى تضع ثمن المشروبين على القسيمة تحت الطبق الصغير :

ـــ لا عجب فى هذا ! فنحن أبناء تجربة واحدة !

نهض بدوره ليسير ممسكا بيدها حتى السيارة التى ركباها لتنطلق بهما بثقة بالغة بين رتل السيارات المارقة يمنة ويسرة ! وهما يتبادلان حديثا ذا شجون تندرت فيه سهام على مواقفها القديمة ومشاجراتها معه ، والتى استمرت إحداها حتى مطلع الفجر بحيث أعجزته عن إتمام العملية الجراحية التى كان بصدد القيام بها فى صباح اليوم التالى !

كانت شوارع القاهرة تبدو فى نظره جديدة نابضة بالحياة والحيوية ، وتكاد تتطابق مع شوارع بغداد ! نفس الوجوه السمراء والقمحية والبيضاء ، والعيون العسلية والسوداء ببريقها الآخذ فى الاتساع ، والخطوات السريعة الواثقة على الأرصفة !

أخيرا بدا البيت الجميل الصغير عند منحنى الشارع حيث وقفت فى شرفته دعاء وأيمن ، فلهج لسان خالد دون أن يدرى :

ـــ ما أروع أن يلتئم الشمل مرة أخرى !

اختفت دعاء وأيمن من الشرفة فى لمح البصر والسيارة تحاذى الرصيف أمام مدخل البيت الذى انطلقت منه دعاء وأيمن ليحتويا أباهما بأذرع ساخنة ، ودموع فياضة ، وكلمات لاهثة متناثرة ، وخطوات إلى داخل البيت الذى امتزج فيه الظل بنسيم عليل ، فى حين فتحت سهام مؤخرة

السيارة لتخرج الحقيبة وهى تتابع المشهد بعيون دامعة تألقت فى وميض الشمس الذى افترش الشارع . أما العصافير التى واصلت الشقشقة والقفز بين أفنان الشجيرة التى بزغت من أسفلت الرصيف أمام المدخل ، فيبدو أنها كانت تحتفل أيضا بالتئام الشمل وسط أوراق الربيع التى تراقصت مع النسمات الرقيقة الصافية بخضرتها الزاهية اللامعة !

(تمـت)

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

رقم الإيداع ٤٠٦٠ / ١٩٩٠
I. S. B. N. 977 – 11 – 0594 – 9